تأملات في سورة القارعة

دكتور حسن محمد باجودة

رئيس قسم الدراسات العليا العربية
جامعة الملك عبد العزيز
بمكة المكرمة

دار الاعتصام

مقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

هذه التأملات لسورة الحاقة ، استهدفت دراسة السورة الكريمة دراسة بيانية . وقد تم ذلك فى ضوء تقسيمها وفق القضايا التى تعالج والموضوعات التى تعرض ، الى أقسام تسعة . وقد تبين أن البعث بعد الموت من أهم القضايا التى عنيت بها السورة الكريمة ، شأنها فى ذلك شأن سائر المكى من القرآن . ومن الأدلة على ذلك أنها ابتدأت بلفظ الحاقة ، وهو اسم من أسماء يوم القيامة ، ويعطى صفة من أهم صفاته . أنها اعطاء كل ذى حق حقه . ويلاحظ أن لفظ الحاقه يرد فى آيات القسم الأول الثلاث ثلاث مرات ، دليلا على الاهتمام بذلك اليوم المجموع له الناس المشهود ، على الرغم من أنه كان يمكن الاستبدال بلفظ الحاقه اسم الضمير هى فى كل من الآيتين الكريمتين ، الثانية والثالثة ، فيقال مثـــلا : الحاقة ما هى وماأدراك ماهى . وقد تلحق بالضمير هاء السكت فيقال ماهيه . ولكن الاهتمام بهذه الصفة ليوم القيامـــة ، جعل الآيات الثلاث تكون فى هذه الصورة : ((الحاقة ما الحاقة وما ادراك ما الحاقه)) .

واذا كانت العناية بالمعنى الثانوى للفظ ، باعتبار اللغة الاشتقاقية بطبعها ، تجعل اللفظة قادرة على الادلاء بالمعنى الأولى وبالثانوى معا ، بالمعنى وبظل المعنى . فالحاقة من

أسماء يوم القيامة وهي تدل على صفة من صفاته ، فان العناية بهذه المعانى الثانوية ، فى السورة الكريمة ، كانت كبيرة ، من زاوية الاشتقاق ذاتها .

ومن أهم ما لفت انتباهنا بشأن لفظ الحاقة كذلك ، أنه تضمن فى ثناياه المقطع الصوتى الطويل ، الذى يتكون من حركة فسكونين ، ضاربا عرض الحائط ، بتلك النظـرية الصوتية التى تقول : ان المقطع الصوتى الطويل ، لا يجىء الا فى نهاية كلام موسـيقى يسكت عند نهايته . ان المقطـع الصوتى الطويل ، الذى يمكن أن نرمز له بالرقم ٩ جاء بشأن لفظ الحاقه فى وسطها ، بين مقطعين متوسطين ٥٩٥ ، وهذا فى حالة الوقوف على اللفظ بالسكون ، والمعروف أن المقطع الصوتى المتوسط ، يتكون من حركة فسكون ، ويرمـز له بالسكون أو الرقم ٥ . وفى حالة الوصل بشأن لفظ الحاقة « الحاقة ما الحاقة » يكون ترتيب المقاطع الصوتية كالتالى : مقطع متوسط فمقطع طويل فمقطعان قصيران والمعروف أيضا أن المقطع القصير أو الصغير يرمز له بحركة أو خط . وهذا المقطع عبارة عن حرف متحرك بالفتحة أو الضمة أو الكسرة . ويلاحظ بشأن المقاطع أن كلا منها ينبغى أن يبدأ بحركة . وقد عرفنا أن المقطع القصير أو الصغير عبارة عن هذه الحركة ذاتهـا . فينبغى اذن أن يلى هذه الحركة التى يتكون منها المقطع القصير حركة أخرى لمقطع آخر .

وقد كان لظاهرة التلاؤم الصوتى حظها فى الدراسة المتأملة للسورة الكريمة . وتعتبر لفظة الحاقة من أوضح النماذج لذلك . وحينما نتبين أن لفظة الحاقة قد اشتملت على المقطع الطويل ، شـأنها فى ذلك شأن لفظة الطـامة فى النازعات والصاخة فى عبس . فما ذلك الا من أجل المعنى وبقصد أن يتجلى التعاون كاملا بين المعنى والمبنى ذلك المبنى الذى يدل على صفة من أهم صفات اليوم العصيب ، الذى تطول فيه الأنات ، وتشتد الزفرات ، وتتابع الآهات .

ومن أهم ما لوحظ فى أثناء الدراسة ، أن تقديم ثمود المتأخرة زمنا ، على عاد المتقدمة زمنا ، فى قوله تعالى : « كذبت ثمود

وعاد بالقارعة)) انما كان بسبب الموافقة الصوتية بين عاد وبين الفاصلة ، والموافقة بين ثمود وجملة كذبت ، وقد استتبعه اتجاه السورة ، بشأن الأقوام الذين أهلك الله تعالى بسبب تكذيبهم ، الى الماضى باستمرار . ولهذا الاتجاه فضله فى ترجيح القراءة التى تتمشى معه أعنى ((ومن قبله)) بفتح القاف وسكون الباء ، أى ومن قبل فرعون ، على القراءة الأخرى ((ومن قبله)) بكسر القاف وفتح الباء ، أى ومن عاصر فرعون وكان فى زمانه وذلك فى قوله تعالى : ((وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة)) .

وأن جملة ((جاء)) فى الآية الكريمة ، التى ترتبط بها جملة ((أتى)) صنوها ، قد حملتنا على أن ندرسهما دراسة متأملة . وانتهينا الى نتيجة مهمة هى (جملة جاء ومتعلقاتها ، لا تستعمل فى القرآن الكريم الا دليلا على القرب الزمانى والمكانى والنفسى . وأن جملة أتى ومتعلقاتها ، لا تستعمل الا دليلا على البعد الزمانى والمكانى والنفسى . وقد ضربنا على ذلك الكثير من النماذج القرآنية . وفيما يتصل بجملة جاء فى قوله تعالى : ((وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة)) تبين أن تلك الفعلة الخاطئة أو الفعلات ، التى صاحبت فرعون ومن شاكله والتى قاموا بها عن عمد وسابق اصرار ، كانت قريبة من أفئدتهم كل القرب ، بحيث انها لم تدع لسواها من خير موضعا .

وبما أن هذه السورة الكريمة ، قد عنيت بالاشارة الى كون القرآن الكريم بمنأى عن أدنى تغيير أو تبديل ، وفى ذلك رد على كل الاتهامات التى توجه الى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولما كانت فرية القرانيق احدى هذه التهم ، قد أردفنا الدراسة المتأملة لسورة الحاقة ، بتبيين رأينا فى فرية القرانيق ، التى انتهينا بشأنها الى أنها ضعيفة السند والمتن معا ، وأنها تصطدم بالنص القرآنى ، وبعصمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وبشأن هذه الدراسة المتأملة لسورة الحاقة المكية الكريمة، أقول ما قلت بشأن كل الدراسات السابقة المماثلة . اننى

اشهد الله تعالى الذى لا اله غيره ، أنى لم أنشأ لحظة من اللحظات ، أن أحمـــل حرفا واحدا من القـــرآن الكريم فوق ما يحتمل . ومن كانت له أية ملاحظة على هذه الدراســـة أو الدراسات السابقة ، فلا يتردد فى اعلانها ، فالحق أحق أن يتبع .

وفى الختام أسأل الله تعالى أن يتقبل منا صالح الأعمال . « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنـــا به . واعف عنا واغفر لنـــا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » صدق الله العظيم . والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

د . حسن محمد باجوده
رئيس قسم الدراسات العليا العربية
جامعة الملك عبد العزيز
مكة المكرمة

مكة المكرمة
الأحد العشرون من شهر
جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ هـ
الموافق ٨ مايو ١٩٧٧ م

تـــوطئـــة

توطئـــة

أمكن تقسيم صورة الحاقة الكريمة المكية(١) ، بحسب القضايا التى تعالج ، والموضوعات التى تعرض ، الى الأقسام التســعة التاليــة .

القسم الأول : يتكون من ثلاث آيات . قال تعالى : « الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » ومن أهم ما يلفت الانتباه ذكر لفظ الحاقة مرات ثلاثا فى الآيات الثلاث ، وعدم الاكتفاء بالضــمير المنفصل هى الذى كان بالامكان أن يجىء فى الآيتين الــكريمتين الثانية والثالثة ، فى هذه الصورة مثلا : الحاقة ما هى . وما أدراك ما هى . كما أنه كان بالامكان أن تتبع الياء هاء الســكت فيقال ما هيه على غرار ما جاء فى هذه السورة مثلا . ولكن الذى جــاء هو لفظ الحاقة صريحا ، دليلا على الرغبة فى شد الانتباه شدا الى يوم القيامة الذى يعتبر الحق فى شأنه من أهم علاماته ومتعلقاته . ومن أهم ما يلفت الانتباه كذلك أن آيات القسم الثلاث ، تتجــه من الوجهة الصوتية نحو الطول باطراد .

القسم الثانى : يتكون من خمس آيات . ويتحــدث عن ثمود وعاد ، من زاوية تكذيبهم للرسل وعقابهم فى الدنيا قبل الآخرة . قال تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية . وأما عــاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية . ســخرها عليهم ســبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كانهم أعجــاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » .

ومما يلفت الانتباه فى هذا القسم تقديم ثمود على عاد . والمعروف أن ثمود تتاخر زمنا . وان الابتداء بالمتأخرين زمنا ، جعل الحديث عن المكذبين الذين انتقم الله تعالى منهم فى الدنيا قبل الآخرة ، يتجه الى المــاضى باطراد . وهؤلاء هم الذين سبقوا عادا ، وذكرتهم السورة الكريمة ، بعد أن سبقت هى ثمود . فرعون والذين من قبله ، وقوم لوط ، وقوم نوح عليهما السلام . أما لمــاذا تقدمت

---

(١) البحر المحيط ، ٨/٣٢٠ والسورة تتكون من اثنتين وخمسين آية .

ثمود وتأخرت عاد فى الآية الكريمة : ((كذبت ثمود وعاد بالقارعة)) فلأن جملة ((كذبت)) فى صدر الآية ، تجانس من الوجهة الصوتية ثمود ((كذبت ثمود)) ولأن لفظة ((القارعة)) التى جاءت فاصلة ، موافقة للفواصل السابقة واللاحقة ، تجانس من الوجهة الصوتية عادا . ((وعاد بالقارعة)) .

ولتقديم ثمود على عاد فائدة أخرى مهمة ، اذ جعلنا نرجح قراءه الجمهور ، ((ومن قبله)) بمعنى من سبق فرعون زمنا ، وذلك فى قوله تعالى : ((وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة)) على القراءة الأخرى التى تذهب الى أن قبل هى بكسر القاف وفتح الباء ، بمعنى من عاصره وكان فى زمنه .

ومما يلاحظ أن ترتيب العقاب فى الدنيا ، موافق لترتيب القومين فى الذكر : ((ثمود وعاد)) وأن طبيعة الانتقام ، من حيث السرعة أو البطء ، انعكست فى الحديث عن العقابين . فبما أن عقاب ثمود تمثل فى صيحة واحدة ، لواحد من جند الله تعالى ، فقد كان الحديث عن هذه الصيحة فى آية واحدة فقط ((فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية)) وبما أن عقاب عاد بالريح شديدة البرودة والصوت : سبع ليال وثمانية أيام متتابعة ، فقد كان الحديث عن وسيلة العذاب الطويلة هذه مائلا الى الطول .

القسم الثالث : يتكون من آيتين كريمتين ، ويتحدث عن فرعون والسابقين عليه من الطغاة ، وعن قوم لوط عليه السلام ، وانتقام الله تعالى منهم جميعا بالأخذة الرابية التى ربت على غيرها من الأخذات ، جزاء وفاق طغيانهم الرابى الذى ليس عليه من مزيد . قال تعالى : ((وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية)) .

والقسم الرابع : الذى يتكون من آيتين كريمتين ، يتحدث عن نوح عليه السلام وقومه الذين كان لهم موقفان من الدعوة الى الله تعالى . موقف المكذبين ، وهؤلاء قد أبيدوا عن آخرهم بالطوفان . وموقف المؤمنين ، وهؤلاء قد من الله تعالى عليهم بأن أنقذهم بواسطة السفينة ، التى أوحى عز وجل ، لنوح عليه

السلام ، أن يصنعها . ان كل الخلائق سلالة أولئك الذين ركبـوا السفينة . وان سورة الحاقة الكريمة ، تخاطب الناس من زاوية هذه المنة ، التى ينبغى لهم أن يقدروها حق قدرها فمن كان شاكرا لله تعالى مطيعا ، عليه أن يستزيد من فعل الصالحات . ومن كان غير ذلك ، عليه أن يتدارك الأمر قبل فوات الأوان . قال تعالى : « انا لمـا طغا المـاء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .

والقسم الخامس : الذى يتكون من ست آيات ، يتحـدث عن يوم القيامة ، الذى يتسع للنفختين ، الأولى ، التى تميت بارادته عز وجل كل الأحياء ، الا من شاء ربك ، والثانية ، التى تحيى بارادة الله تعالى الأموات . قال عز من قائل : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحده . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها . ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . اننا بصدد مشهد حى متحرك يخـلع الأفئدة . فعلى الناس جميعا أن يعدوا العدة لذلك اليوم العظيم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم . وفى ذلك اليوم ، أثر الحساب ، يكون الثواب أو العقاب .

والقسم السادس : الذى يتكون من تسع عشرة آية ، عبارة عن شقين ، يتحـدث أولهما فى ست آيات عمن أوتى كتابه بيمينه . وتفضل عز وجل عليه بأن بدل سيئاته حسنات . ان هذا الناجى لا يكاد يصدق أنه نجا . ولكن رحمة الله تعالى شملته . وها هو ذا فى الجنة ينعم بالحياة الهنية الرضية ، حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر . قال عز من قائل : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه . انى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » . ان واجب كل مسلم لله رب العالمين ، أن يعمل جهد الطاقة ، مستعينا بالله تعالى ، عله أن يكون بعون منه عز وجل وتوفيق ، من أصـحاب اليمين . ويتحدث ثانى الشقين حديثا مستفيضا عمن أوتى كتابه بشماله ، ويعين أهم سببين لدخوله النار وكون طعـامه من

غسلين . أما أول السببين ، فقد كان لا يؤمن بالله العظيم . وأما ثانيهما فقد كان لا يحض على طعام المسكين . ومن هنا يتبين قيمة الزكاة فى الاسلام ، التى تقرن فى القرآن الكريم غالبا بالصلاة . قال عز من قائل : ((وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . انه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله الا الخاطئون)) .

والقسم السابع : يتكون من ست آيات ، فيه يقسم رب العزة بما يبصر الخلائق وبما لا يبصرون ، بأن القرآن الكريم ، كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، بلسان عربى مبين ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، الذى لم يكن شاعرا ولا كاهنا . لأن القرآن الكريم حق كله . قال عز من قائل : ((فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين)) .

ان القرآن الكريم هو الحق كل الحق . وينبغى أن تكون تلك صفة القرآن الكريم دائما . فلا يحق لمخلوق ، مهما جل شأنه ، أن يمس القرآن الكريم بشىء من الحذف أو الاضافة أو التغيير . بل لن يستطيع شقى ولو حرص أن يفعل شيئا من ذلك ، لأن رب العزة قد تكفل بحفظ هذا الكتاب العزيز ، الى أن يرث عز وجل الأرض ومن عليها . وكيف يتهم كفار مكة الرسول الكريم بأنه شاعر أو كاهن ، وأن القرآن الكريم ضرب من الشعر وسجع الكهان، بينما هم أكثر الناس علما بالشعر وبالكهانة ، وأكثر الناس يقينا بأن القرآن الكريم ليس من الشعر والكهانة فى شىء ! ولماذا لم يصدقوا الرسول الكريم ولم يؤمنوا بأن القرآن الكريم كلام رب العالمين ؟ أم أنهم يتهمون المصطفى صلى الله عليه وسلم بالكذب على الله ، بينما هم أكثر الناس يقينا بأن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أنأى الناس عن الكذب ! وكيف لا يكون الرسول الكريم أمينا

دائما وهم ينعتونه قبل البعثة بالأمين ؟ أيجوز فى حكم العقل ألا يكذب انسان على البشر ويكذب على الله تعالى ! ان هذا ما لا يصدقه عقل ، ولكن هذا هو عين ما يقوله كفار مكة . ان عليهم هم وسواهم ، أن يعلموا أن القرآن الكريم كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وأن من هم بسوء يريد أن ينال به القرآن الكريم ، فانه عز وجل سيأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولن يستطيع مخلوق أن يحول بينه وبين عقاب الله تعالى أن يصله . وهنا نجد أنفسنا ، وذلك فى القسم الثامن من السورة الكريمة : الذى يتكون من أربع آيات ، أمام مظهر من مظاهر اعجاز القرآن الكريم ، حينما يجمع فى نسق بين مجموعة من الأمور الممتنعة ، من بينها ــ دليلا على أن القرآن الكريم بمنأى عن أن يمس بأدنى سوء وأن الرسول الكريم هو الأمين على وحى الله تعالى ، والله عز وجل أعلم حيث يجعل رسالته ــ الاشارة الى الممتنع وقوعه ، وهو ما كان سينال المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما لو فرض أن صدر عنه المستحيل ، بأن يتقول على الله تعالى ما لم يقله . قال تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » ومن هذه الأمور الممتنعة أن يتحول كفار مكة من كونهم ألد أعداء المصطفى صلى الله عليه وسلم آنذاك الى كونهم أكثر الناس دفاعا مستميتا عنه . ومعروف أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، دليلا على منزلته عند بارئه ، وعلى كونه الأمين دائما ، قد غفر عز وجل له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . على نحو ما أشار فى أول سورة الفتح(١) قوله تعالى : « انا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا » .

والقسم التاسع والأخير من السورة الكريمة : والذى يتكون من خمس آيات ، يتحدث عن مجموعة من الحقائق ، اثر الابتداء أول السورة بيوم القيامة من حيث ارتباط مجموعة من الحقائق به ، واثر الحديث عن كون القرآن الكريم هو الحق كل الحق ، لأنه كلام الله تعالى . أما هذه المجموعة من الحقائق التى يتحدث عنها

---

(١) الآيات : ١ ــ ٣ .

القسم الأخير من السورة الكريمة ، فانها تتعلق كذلك بالقـــرآن الكريم الذى ينتفع به المتقون ، بينما يكذب به الكافرون الذين سيندمون يوم القيامة . ان هذا القرآن الكريم هو حق اليقين ، وهو عين اليقين . فينبغى الايمان بأنه كلام رب العالمين والعمل بموجبه. وفى مقدمة الأعمال افراد الله تعالى بالعبادة والتسبيح بحمـــده . وبهذه القضية الغاية فى الأهمية ختمت هذه السورة المكية الكريمة، التى تعنى بأسس العقيدة ، شأنها فى ذلك شأن سائر المكى من القرآن . قال تعالى : « وانه لتذكرة للمتقين وانا لنعلم أن منكم مكذبين . وانه لحسرة على الكافرين . وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » .

وبعد هذا العرض السريع لأقسام السورة الكريمة وفق قضاياها التى تعرض . يأتى دور الدراسة المتأملة .

الدراسة المتأملة لسورة الحاقة

القسم الأول

القسم الأول :

قال تعالى : « **الحاقة ما الحاقة ؟ وما ادراك ما الحاقة ؟** »

ان اول ما يشد الانتباه ، اشتمال كل من الآيات الثلاث على لفظ الحاقة . فما معنى الحاقة ؟ معناها الساعة ويوم القيامة .

ان هذه اللفظة المشتقة ، عبارة عن اسم الفاعل من الفعل حق ، وان من خصائص اللغة الاشتقاقية ، وعلى راسها اللغة العربية ، التى يطرد فيها الاشتقاق ، ان اللفظة المشتقة ، بالاضافة الى اعطائها المعنى الذى وضعت للدلالة عليه ، هى قادرة على الايحاء بالزاوية التى روعيت فى اثناء اطلاقها دليلا على مسمى بعينه ، فهى بذلك تعطى المعنى وظل المعنى فى آن واحد ، تتدم الفائدة والأصل الذى اعتمدت عليه او القاعدة التى انطلقت منها ، باعتبار كل لفظة مشتقة ، ينبغى أن تتضمن حروف الأصل وتشتمل على روح ذلك الأصل او بصمات اصابعه . فى ضوء كل ذلك ، نود أن نعرف الزاوية التى روعيت أثناء اطلاق لفظ الحاقة ، دليلا على يوم القيامة . والمعانى الثانوية التى يستطيع اللفظ أن يشعها ويوحى بها .

لو انعمنا النظر فى المعنى المشترك للألفاظ المشتقة من الاصل اللغوى حقق ، لانتهينا الى أن ذلك المعنى المشترك هو الحق نقيض الباطل(١) بما فى ذلك لفظ الحاقة ، بطبيعة الحال . وبما أن يوم القيامة ، الذى أطلق لفظ الحاقة دليلا عليه ، يرتبط به الكثير والكثير من الحقائق ، منها انه هو فى ذاته حق ، رغم انكار المنكرين ، ومنها أن الحساب حق ، والعقاب حق ، والثواب حق ، والنار حق ، والجنة حق ، الى غير ذلك من الحقائق ، فان آراء العلماء ، فى محاولة تحديد المعنى المراد من لفظ الحاقة ، قد دارت فى مجموعها حول الحقائق التى ترتبط بذلك اليوم المجموع له الناس المشهود ، من حيث الوجود والملابسات .

ومن القى نظرة على ما كتب المفسرون ، عن معنى الحاقة ، استطاع أن يتبين هذه الحقيقة أو تلك ، من حقائق ذلك اليوم ،

---

(١) أنظر اللسان مثلا « حقق » .

وقد استحوذت على هذا المفسر أو ذاك ، مذهب ـ محقا ـ انى أن هذه الحقيقة أو تلك ، يمكن أن يعنيها لفظ « الحاقة » . ومن وضع فى روعه الحقيقة القائمة من كون هذه السورة الكريمة « الحاقة » مكية ، تخاطب فى المقام الأول ، كفار مكة ومن فى حكمهم ، المنكرين للبعث ، وما يترتب عليه من حساب وجزاء ، بقصد حملهم على الايمان باليوم الآخر واعداد العدة له ، ومن انعم النظر فى الآية الكريمة الرابعة « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » التى تبين موقف ثمود وعاد من يوم القيامة ، وهو ذات الموقف الذى اتخذه كفار مكة ، استطاع أن يجد عنده ميلا ، ربما كان شديدا ، بشأن معنى لفظ « الحاقة » الى قبول الرأى الذى يذهب الى كون لفظ « الحاقة » معناه أن يوم القيامة حق والجزاء حق . وبما أن الايمان بكون يوم القيامة حقا غير كاف ، بل لابد من العمل الصالح من أجل ذلك اليوم العظيم ، فمعنى هذا أن أولى الحقيقتين بالأخذ فى الاعتبار ، هى الحقيقة الثانية ، أعنى كون الجزاء على العمل بعد الحساب حقا . وهى الحقيقة المبنية على الأولى ، أعنى كون يوم القيامة حقا . لذا فالذى يظن ، والله تعالى أعلم ، أن الرأى الذى يذهب الى كون لفظ الحاقة معناه الساعة « التى تحق فيها الأمور ويجب فيها الجزاء على الأعمال »(١) يتقدم سواه . فلو ذهبنا الى المعاجم لتبينا مثلا القول(٢) : « الحق نقيض الباطل . وحقه يحقه حقا وأحقه ، كلاهما اثبته وصار عنده حقا لا يشك فيه .. والحاقة : النازلة ، وهى الداهية أيضا . وفى التهذيب : الحقة الداهية . والحاقة : القيامة . وقد حقت تحق . وفى التنزيل : الحاقة ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . الحاقة : الساعة والقيامة . سميت حاقة ، لأنها تحق كل انسان من خير أو شر . قال ذلك الزجاج » .

مما سبق يتبين أن فى امكاننا القول بشأن معنى الحاقة : انها الساعة . المعطية كل ذى حق حقه ، من ثواب أو عقاب ، فى الجنة أو النار . وفق عمله فى الحياة الدنيا من خير أو شر والله تعالى أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٢٩ .
(٢) اللسان : « حقق » .

وان ابتداء السورة الكريمة بلفظ « الحاقة » ذى المعنى الذى يخلع الأفئدة ، على نحو ما بينا ، خير ما يوافق كفار مكة المكذبين بيوم القيامة ، الغلاظ الأفئدة القساة القلوب ، بقصد أن يصحوا من موقفهم ، ويعدوا العدة لذلك الموقف العصيب . والذى يعمق من المعنى العنيف للفظ « الحاقة » طبيعة تكوينه ، لأنه ، وهو الذى يشكل آية قائمة برأسها ، ويتكون من سبعة حروف منطوقة ، يشتمل على الالف الممدودة ، يليها القاف المشددة . وقد نجم من ذلك التركيب الصوتى النادر للفظ ، أن حدث ، اثر الامتداد فى النطق بالألف ، انقضاض خاطف على الحرف المشدد . وبذلك يتاح للنفس ، منذ بداية الجولة الأولى ، أن ترغم على التخلص من أكبر كمية ممكنة من أحاسيسها وانفعالاتها . ولو أننا تعاملنا مع نظام المقاطع لتبينا أن لفظ « الحاقة » فى حال الوقوف عليه بالسكون ، يتكون من ثلاثة مقاطع ، اثنان منها متوسطان والثالث طويل ، ويقع بين المقطعين المتوسطين . فلا يظن أن هذا المقطع الطويل ، الذى يتكون من حركة فسكونين ، قد جاء فى نهاية اللفظ تمشيا مع النظرية الصوتية التى تقول : ان المقطع الطويل ، يجىء فى نهاية كلام يسكت عنده . ان الحقيقة هنا غير ذلك . اذ أن المقطع الطويل يجىء ثانى المقاطع الثلاثة . وبذلك يضرب بتلك النظرية الصوتية عرض الحائط . فنحن نصادف هذا المقطع الطويل ، فى ثنايا كلام تتجلى فيه ظاهرة تلاؤم الأصوات فى أرفع الدرجات التى يطبقها كلام أقرب فى تكوينه الى طبيعة النثر . أما وقد جاء فى حديثنا لفظ النثر ، فينبغى أن يجىء حالا الى ذاكرتنا بالتداعى صفة الحرية التى هى من أخص خصائص الكلام النثرى . والمعروف أن القرآن الكريم يجتمع فيه خير ما فى الشعر والنثر معا . ومن خير ما فى الشعر ظاهرة تلاؤم الأصوات ، ومن خير ما فى النثر الحرية وبهذا تخف وطأة المفاجأة لمجىء مقطع صوتى طويل فى ثنايا كلام ، تعتبر ظاهرة تلاؤم الأصوات ، احدى مقومات اعجازه .

وان ما قيل بشأن لفظ الحاقة فى الآية الأولى يقال بشأن اللفظ فى الآيتين التاليتين . وبما أن حديثنا اتجه وجهة صوتية ، ففى امكاننا أن نكمله بشأن آيات القسم الثلاث فنقول : اننا لو وقفنا بالسكون على نهاية الآية الأولى لتبينا تشابها صوتيا كاملا بين كل من الآيتين الأولى والثانية وبين القول فى الآية الثالثة « ما الحاقة » الذى

يشكل الشطر الثانى لهذه الآية . فثمة تشابه كامل فى مواطن ثلاثة من الآيات الثلاث فى القسم . أما الشطر الأول أو صدر الآية الثالثة، « وما أدراك » فانه من الوجهة الصوتية غير بعيد الشبه بأجزاء الكلام الأخرى . وينبغى ألا ننسى أن هذا القرب فى الشبه من أهم مظاهر الحرية فى كلام نثرى . ولو أننا أثناء التلاوة ، وصلنا الآيتين الأولى والثانية ببعضهما وتلونا الآية الثالثة منفردة لرسخ فى أنفسنا أننا بصدد صورة من أسمى الصور ، لظاهرة التلاؤم الصوتى ، التى يمكن أن يحققها كلام نثرى . فاذا كان صدر الآية الثالثة يزيد بمقطع صوتى ، اذ يتكون من خمسة مقاطع ، فان الآية الأولى التى تقابله والتى تتكون فى حالة الوصل من أربعة مقاطع ، تشتمل فى ثناياها على مقطع طويل ، يشد الانتباه شدا ، مقابل شد الانتباه ، فى صدر الآية الثالثة ، من أجل توالى ثلاثة مقاطع صوتية متوسطة .

واذا كان لفظ « الحاقة » قد شد الأذن لمجيئه فى الثلاث الآيات ، فانه بمعناه شاد للانتباه كذلك . ان ابتداء السورة الكريمة بلفظ « الحاقة » خالع للأفئدة ، فكيف اذا جاء اللفظ ذاته مرات ثلاثا ، فى آيات ثلاث ؟ وكيف اذا أضيف الى ذلك العدول عن الضمير « هى » الى اللفظ الظاهر « الحاقة » فى الآيتين الثانية والثالثة على التوالى ؟ قد كان من الجائز معنويا ، أن يكون التعبير فى هذه الصورة : الحاقة ما هى ؟ وما أدراك ما هى ؟ ولكن أين الثرى من الثريا كما يقولون ؟ أين أثر التكرار الذى يستقطب الاهتمام لصرامة الموقف وخطورته ؟ وأين الأثر الضعيف للضمير المنفصل « هى » فى قولنا ، ما هى ، من الأثر القوى لتكرار لفظ «الحاقة» الذى خلع الأفئدة لأول مرة يفاجئنا . واذا به يخلعها مرة أخرى فمرة ؟

ومما هو معمق لضخامة وقع التكرار ، اقتران الحاقة فى المرتين التاليتين بسؤالين . « ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » ؟ والمعروف أن الاستفهام قادر على حمل الموجه اليه الحديث على أن تكون مشاركته فى الحديث ايجابية . اذ يتحول ، وهو المتلقى ، طرفا ثانيا فى المسألة ، مساويا للطرف الأول الذى يمثله السائل .

وهذا السؤال فى الآية الثانية « ما الحاقة » ؟ يتعلق بيوم القيامة . ويراد به تفخيم شأن ذلك اليوم العظيم . وواضح ان مثل هذا السؤال « ما الحاقة » ؟ يحمل كل واقف على السؤال على أن يحاول من جهته اطلاق العنان لخياله عله يستطيع ان يحصل على صورة تتكافأ مع ما استقر فى الروع من هول ذلك اليوم . ولكن لما كان خيالنا قابلا لأن تعود كل جزئية من جزئياته الى نظير لها فى الحقيقة أو نظائر ، ولما كان هول يوم القيامة ، بعيدا كل البعد عن أن يرتاده خيال أو يلم به تصور ، فان انقلاب الخيال حسيرا ، والتصور بليدا ، عقب الفشل فى الجواب عن هذا السؤال : « ما الحاقة » ؟ لا يلبث ان يحمل المتخيل والمتصور على أن يوقن فى اعماقه بضآلته وقماءته حينما يتبين أن خير خلق الله تعالى كلهم ، ما كان له ن يعلم شيئا عن طبيعة ذلك اليوم الا عن طريق تعليم الله تعالى اياه . قال عز من قائل : « وما أدراك ما الحاقة » ؟ وما : استفهام لا يراد حقيقته بل التعظيم . واكثر ما يربط بتكرار المبتدأ اذا أريد ، يعنى التعظيم والتهويل(١) .

ان هذه الآية الكريمة الثالثة : « وما ادراك ما الحاقة » ؟ يوجه الخطاب فيها الى النبى صلى الله عليه وسلم فى المقام الأول . وان كان ذلك لا يمنع أن يفهم كل انسان ، وراء ذلك ، ان الخطاب موجه اليه ومن العلماء من فرق بين القول فى القرآن الكريم ، فى غير هذا الموضع : « وما يدريك » ؟ وبين القول ، فى مثل هذا الموضع « وما أدراك » ؟ عن سفيان (بن عيينة) قال : ما فى القرآن : وما يدريك . فلم يخبره . وما كان : وما أدراك . فقد أخبره(٢) « والنبى صلى الله عليه وسلم كان عالما بالقيامة ولكن بالصفة . فقيل تفخيما لشأنها : وما ادراك ما هى . كأنك لست تعلمها اذا لم تعاينها »(٣) .

ولعلنا لاحظنا بشأن هذه الآية الاخيرة ، ما لا حظناه بشأن الآية الثانية من العدول عن الضمير هى الى الاسم الظاهر الذى جاء للمرة الثالثة ، كما بينا من قبل ، تمشيا مع غرض تفخيم شأن الحاقة .

---

(١) البحر المحيط ٣٢٠/٨ .
(٢) تفسير الطبرى ٣١/٢٩ وانظر تفسير القرطبى ص ٦٧٣٦
(٣) تفسير القرطبى ص ٦٧٣٦ .

القسم الثانى

هلاك ثمود وعاد

(الآيات ٤ - ٨)

القسم الثانى :

قال تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القـــوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » .

لاحظنا من ذى قبل أن بداية السورة الكريمة عنيفة فقد جاءت لفظة « الحاقة » مرات ثلاثا فى الآيات الثلاث التى يتألف منها القسم الأول من السورة ، لأن مثل هذه الطريقة فى التعبير هى التى قد تجدى مع كفار مـــكة وأمثالهم من الذين طمس الله تعـــالى على بصائرهم . ويفهم من ذكر لفظ الحاقة هذه المرات الثلاث ، أن قضية البعث بعد الموت من أهم قضايا الخلاف بين الرسول الكريم وبين قومه المكذبين . وقد جاء القسم الثانى مؤكدا لهذا الفهم ، اذ يبين الموقف المنكر للبعث ، المشابه لموقف كفار مكة ، الصادر عن ثمود وعاد . كما يبين مصير المكذبين المماثلين لكفار مكة تكذيبا واستكبارا ، المتفوقين عليهم عددا واستعدادا . فعلى كفار مكة أن يأخذوا حذرهم قبل فوات الأوان .

وبتأملنا للآية الكريمة الأولى ، يلفت نظرنا لفظ « القارعة » ، الذى يعنى « الحاقة » أى يوم القيامة ، مع الايحاء بصفة أخـــرى من صفاته . اننا لو أمعنا النظر فى الأصل اللغوى الذى اشتقت منه لفظة القارعة ، وفى المعانى الرئيسية التى ترتبط بمشتقات هذه المعانى ، لأمكن ارجاعها الى القرع بمعنى الضرب ، والى شـــدة هذا الضرب ، والى طبيعته المزعجة ، لكونه مفاجئا عادة . ومن هنا قيل : ان معنى القارعة فى اللغة ، النازلة الشديدة تنزل بأمر عظيم ، ولذلك قيل ليوم القيامة : القارعة . ويقال : قرعتهم قوارع الدهر اى أصابتهم . ونعوذ بالله من قوارع فلان ولواذعه وقوارص لسانه(١) أما أن الأصل الذى اشتق منه لفظ القارعة يعنى الضرب فمن قولهم : قرع الشىء يقرعه قرعا : ضربه . والقارعة من شدائد الدهر وهى الداهية . وكله من القرع الذى هو الضرب(١) وأما أن

---

(١) أنظر اللسان « قرع » .

من متعلقات هذه المـــادة شدة الضرب والمفاجأة المزعجة فمن قولهم : أصابته قارعة يعنى أمرا عظيما يقرعه . وقولهم : أنزل الله به قرعاء ، وقارعة ، ومقرعة ، وأنزل الله به بيضاء ، ومبيضة ، هى المصيبة التى لا تدع مالا ولا غـــيره . وقولهم : قرعه أمر اذا أتاه فجأة ، وجمعها قوارع . وفى الحديث : أقسم لتقرعن بها أبا هريرة ، أى لتفجأنه بذكرها ، كالصك له والضرب(١) .

من النصوص السابقة التى تعمدنا الاكثار منها ، يتضح متعلقات لفظة القارعة ، من أن يوم القيامة ، كما ذهب جمهور العلماء ، يقرع القلوب والنفوس بأهواله .

ومما يلفت النظر أيضا ، بشأن هـــذه الآية الكريمة الأولى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » أنها تتكون من أربعة ألفـــاظ يتبين المتأمل أن اللفظة الثانية « ثمود » مجانسة صوتيا للأولى « كذبت » وأن اللفظة الثالثة « عاد » مجانسة صوتيا للرابعة . ولا يقف ما يمكن أن يقال عند هذا الحد من الجمال الصوتى ، فان ثمة روعة معنوية ينبغى أن نتملاها . لقد جرت العادة بأن يكون الحديث عن عاد وثمود مقدما عادا على ثمود . قال تعالى(٢) : « ألم يأتهم نبـــأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود » وقال تعـــالى(٣) : « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود » وقال تعالى(٤) : « مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد » وقال تعالى(٥) : « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » وقال تعالى(٦) : « وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا » وقال تعالى(٧) : « وعادا وثمود وقد

---

(١) انظر اللسان « قرع » .
(٢) التوبة : ٧٠ .
(٣) الحج : ٤٢ .
(٤) غافر : ٣١ .
(٥) فصلت : ١٣ .
(٦) الفرقان : ٣٨ .
(٧) العنكبوت : ٣٨ .

تبين لكم من مساكنهم » وقال تعالى(١) « وأنه أهلك عادا الاولى . وثمود فما أبقى » .

وانما تقدمت فى القرآن الكريم عاد على ثمود غالبا لأن عادا تتقدم زمنا . جاء فى سورة الأعراف(٢) قوله تعالى : « والى ثمود اخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم . هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

لقد تقدمت فى سورة الحاقة ثمود على عاد ، لأن الفاصلة الموافقة صوتيا لما سبقها ولما لحقها تتمشى مع عاد . ولأن ثمود تتمشى مع القول « كذبت » قال تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » . وقد أدى تقديم ثمود المتأخرة زمنا على عاد المتقدمة زمنا ، الى أن يكون ترتيب الأمم التى أهلكها الله تعالى ، مراعيا هذا الترتيب الزمنى الدقيق بين ثمود وعاد . انه يتحول باستمرار من المتأخر زمنا الى المتقدم . ولهذه الحقيقة كبير فضل فى تقوية الراى الذى يقول : ان القول « قبله » من الآية الكريمة « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » بفتح القاف وسكون الباء ، أى ما سبق فرعون زمنا . هذا هو الرأى الراجح لأنه يتفق مع اتجاه السياق زمنا كما سنرى .

« وثمود قوم صالح . وكانت منازلهم بالحجر ، فيما بين الشام والحجاز . قال محمد بن اسحاق . وهو وادى القرى وكانوا عربا »(٣) جاء فى حقهم قوله تعالى فى سورة الحجر(٤) : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها

---

(١) النجم : ٥٠ ، ٥١ .
(٢) آية ٧٣ ، ٧٤ .
(٣) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٣٧ .
(٤) آيات : ٨٠ - ٨٤ .

معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين . فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

« وأما عاد فقوم هود . وكانت منازلهم بالأحقاف . والأحقاف ، الرمل بين عمان الى حضرموت واليمن كله . وكانوا عربا ذوى خلق وبسطة . ذكره محمد بن اسحاق »(١) جاء فى حقهم قوله تعالى فى سورة الأحقاف(٢) : « واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون . فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين . ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

وان ترتيب السياق للمكذبين وفق هذا النسق ، ثمود وعاد استدعى أن يكون ذكر الجزاء العاجل فى الدنيا وفق النسق نفسه . وهذا هو نصيب ثمود . قال تعالى : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » .

لقد نصت الآية الكريمة على أن نصيب ثمود جزاء تكذيبهم رسول الله تعالى اليهم ، صالحا عليه السلام ، الاهلاك التام . تلك هى سنة الله تعالى بشأن مكذبى الرسل السابقين . فبعد ثبوت الحجة عليهم يأخذهم عز وجل أخذ عزيز مقتدر . وقد شاءت ارادته جل وعلا أن يستثنى من هذه القاعدة قوم يونس . قال تعالى(٣) : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم

---

(١) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٣٧ .
(٢) آيات ، ٢١ ــ ٢٦ .
(٣) يونس ، ٩٨ .

الى حين » فما المراد بالطاغية فى الآية الكريمة : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » ؟

ان تعيين الآية الكريمة التالية بشأن عاد قوم هود ، للوسيلة التى تم بها اهلاكهم ، قال تعالى : « واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » يعنى أن الآية الخاصة باهلاك ثمود ، تريد أن تعين وسيلة اهلاك القوم ، وليس الاشارة الىَ سبب الاهلاك ، الذى سبق أن اشار اليه قوله تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » فدلت الآية الكريمة على أن سبب الاهلاك هو التكذيب بيوم القيامة . وبناء على ذلك يكون معنى « بالطاغية » فى الآية الكريمة ، مرتبطا بالوسيلة التى تم بها الاهلاك . وثمة العديد من الأدلة القرآنية التى تنص على تلك الوسيلة وكونها الصيحة الواحدة . من تلك الأدلة الآيات التى سبق ذكرها من سورة الحجر . ومنها قوله تعالى فى سورة القمر(١) : « كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . انا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابى ونذر . انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر(٢) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

واللطيف فى الأمر أنا حينما نتأمل معاجم اللغة ، نستطيع أن نتبين فيها نصوصا تفيد أن من مشتقات الأصل اللغوى ما يرتبط بالصوت مجردا ، وما يرتبط بالصوت الشديد المجاوز للقدر . أما الارتباط بالصوت ، فعلى حد قول القائل : سمعت طغى فلان أى صوته ، هذلية . وطغت البقرة تطغى ، صاحت(٣) ويمكن أن يفهم من القول : طغت البقر ، أن الصوت يميل للارتفاع . على أن ارتباط الصوت

---

(١) الآيات ، ٢٣ ، ٣٢ .

(٢) المحتظر هو الذى يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع وما سقط من ذلك فداسته هو الهشيم . الجلالين .

(٣) اللسان « طغى » .

بالشدة ومجاوزة القدر ، يبدو أوضح فى اطلاق لفظ الطاغيـــة على الصاعقة(١) وعموما فان القول : طغى يطغى طغيا ويطغو طغيانا هو بمعنى جاوز القدر وارتفع(٢) وكل شيء جاوز القدر فقد طغى ، كما طغى المـــاء على قوم نوح ، وكما طغت الصيحة على ثمود(٣) فدل كل ذلك على أن اهلاك الله تعالى ثمود قوم صالح ، تم بواسطة صيحة واحدة ، لواحد من جنده عز وجل ، على حد قوله تعـــالى فى سورة يس(٤) : « وما أنزلنا على قومه من بعـــده من جند من السماء وما كنا منزلين . ان كانت الا صيحة واحـــدة فاذاهم خامدون » . وقال تعالى فى حق ثمود(٥) : « وفى ثمود اذ قيـــل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصـــاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » .

ولنا فى حقيقة الأمر ملاحظة بشأن كون وسيلة العذاب فى حق ثمود قوم صالح الصيحة الواحدة التى ليس لها من فواق(٦) فهمنا مثلا من سورة الحجر أن ثمود كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ، فهم آمنون حسب ظنهم من عوادى الزمن وتقلبات الأجـــواء . وكذبوا رسولهم وعقروا الناقة فأتاهم الله تعالى من حيث لم يحتسبوا . وكانت وسيلة العذاب قادرة على أن تلج على القوم أعماق بيوتهم المنحوتة فى الجبال . جاء فى سورة الشمس(٧) قوله تعالى : « كذبت ثمود بطغواها . اذ انبعث أشقاها . فقـــال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها » .

ان كفار مكة ، الهدف الأول لهذه السورة الكريمة ، لا يستطيعون وقتا من الأوقات أن يزعموا أنهم فى مثل قوة ثمود الذين كانوا قادرين على أن ينحتوا من الجبال بيوتا ، والذين يمر بديارهم كفار مكة ، فى رحلتهم الصيفية الى الشام ، مصبحين وبالليـــل .

---

(١) اللسان : « طغى » .
(٢) اللسان : « طغى » .
(٣) اللسان : « طغى » .
(٤) آية : ٢٨ ، ٢٩ .
(٥) الذاريات : ٤٣ ـ ٤٥ .
(٦) رجـــوع .
(٧) الآيات : ١١ ـ ١٥ .

فواجب كفار مكة أن يأخذوا العظة والعبرة مما حل بثمود بسبب تكذيبهم رسول الله تعالى اليهم وانكارهم للبعث ، والا كانت النتيجة واحدة ، لتشابه السبيلين فى الضلال .

وهذا نصيب عاد من العقاب الأليم . قال تعالى : « واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » .

وأول ما يلفت الانتباه ، بالمقارنة بين نصيبى ثمود وعاد من العقاب هو أن نوع وسيلة العقاب بشأن كل من القومين قد حدد طبيعة حجم الكلام المصور للاهلاك . فبما أن وسيلة اهلاك ثمود الصيحة الواحدة ، التى انتهت حياة ثمود بسماعها ، لذلك كانت لفظة الطاغية ، بمعنى الصيحة المجاوزة لكل حد ، فى قوله تعالى : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » كافية فى الدلالة على الاهلاك الذى كان خاطفا . فاذا تحولنا الى عاد قوم هود ، تبينا أن وسيلة اهلاكهم امتدت ليالى وأياما حتى أتت على آخرهم . وقد اقتضى ذلك أن يميل الى الطول الكلام الذى يصور هلاكهم فى الليالى السبع والأيام الثمانية . وان هذا القول : « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » قادر على الاشعار بأن الاهلاك من نصيب المستتر ومن هو فى العراء . يستوى فى ذلك من كان فى العراء أساسا ومن وجد لديه ، بسبب الطول الطبيعى لوسيلة العذاب ، الرغبة واياس القدرة أول العهد بالريح الصرصر ، فى أن يتحول الى ملجأ أو مغارة أو مدخل(١) وما الى ذلك ، عليها تعصمه من العذاب الشديد . ولكن هذه الريح العقيم لم تبق معتصما الا أهلكته وطوحت به ، على حد قوله تعالى فى هذه السورة : « فهل ترى لهم من باقية » ؟ ومن باب أولى الا يكون ثمة نفس باقية بين البارزين فى العراء ، اساسا أو تحولا ، بحثا عن عاصم .

فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : « واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » وأول ما نود الوقوف عنده لفظة ريح فى صيغة

---

(١) موضع يدخلون فيه .

المفرد وليس الجمع . والمعروف أن صيغة الجمع رياح ، فى القرآن الكريم ، تجىء فى آيات الرحمة دائما وصيغة الواحد فى قصص العذاب غالبا كالريح العقيم و « ريحا صرصرا »(١) والحقيقة أن مجىء المفرد فى آيات العذاب والجمع فى آيات الرحمة ، ينبه الى شىء يعرفه العرب جيدا وينعكس فى مثل قولهم : لا تلقح السحاب الا من رياح مختلفة(٢) وقد جاء الحديث النبوى الشريف مقررا لهذه الحقيقة ، من كون رياح اللقاح مختلفة وريح العذاب واحدة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم اذا هاجت الريح يقول : اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا . يريد اجعلها لقاحا للسحاب ولا تجعلها عذابا(٣) والمعروف أن لفظ الريح مؤنث(٤) على قوله تعالى فى سورة يونس(٥) : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » .

ويفهم من اطلاق لفظ الريح بشأن عاد ، بعد القول « أهلكوا » فى الآية الكريمة ، أن هذه الريح انما أرسلت بقصد العذاب ، وقد وصفت بصفتين معمقتين لطبيعة العذاب الذى يعنيه وجاءت من أجله صرصر وعاتية . قال تعالى : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » فما معنى الصرصر ؟

بالعودة الى معاجم اللغة يتبين أن لفظة صرصر بجرسها الصوتى الذى يتكون من صر مكررة ، تدل على معنيين رئيسيين ، يأتى أحدهما من الشق « صر » والثانى من التكرار « صرصر » فلو أننا تحولنا الى اللفظة القريبة الصر بالكسر ، فى قوله تعالى(٦) « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن

---

(١) اللسان « روح » .
(٢) اللسان « روح » .
(٣) اللسان « روح » .
(٤) اللسان « روح » .
(٥) يونس : ٢٢ .
(٦) آل عمران : ١١٧ .

أنفسهم يظلمون » لتبينا أن فى هذه الريح صرا أى بردا ، وأن فيها أثناء حركتها تصويتا(١) ولا يخفى أن لجرس اللفظة دوره فى الدلالة على الصوت . بدليل أنا نعبر عن صرير الجندب والباب اذا امتد بالقول : صر الجندب يصر صريرا ، وصر الباب يصر(٢) فاذا تحولنا الى لفظة صرصر ، تبينا أنها من ناحية تدل على شديد البرد جدا(٣) ومن ناحية أخرى تدل على أشد الصوت والصياح(٤) جاء فى الكشاف(٥) بشأن الصرصر : « وقيل الباردة من الصر ، كأنها التى كرر فيها البرد وكثر ، فهى تحرق لشدة بردها » وجاء فى تفسير القرطبى(٦) : « أى باردة تحرق ببردها كاحراق النار ، مأخوذ من الصر وهو البرد قاله الضحاك » وجاء فى اللسان(٧) القول : « وصر يصر صرا وصريرا وصرصر : صوت وصاح أشد الصياح » لا ليس ذلك فحسب . فان لفظة الصرصر لا تدل على الامتداد بالصوت فقط ، بل على ترجيعه . فاذا كانوا قد قالوا عن الجندب والباب: صر الجندب والباب صريرا ، فانهم قالوا : صرصر الأخطب(٨) صرصرة ، كأنهم قدروا فى صوت الجندب المد وفى صوت الأخطب الترجيع فحكوه على ذلك . وكذلك الصقر والبازى(٩) مما سبق يفهم أن الريح الصرصر هو الريح الشديدة البرد الشديدة الصوت مستمرتهما . وتلك طبيعة الريح العقيم التى أهلك الله تعالى بها عادا قوم هود عليه السلام .

ووصفت الريح بالقول : « عاتية » والمراد أن هذه الريح مجاوزة لكل حد فى شدتها وقوتها وطغيانها(١٠) قال قتادة : عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم(١١) .

---

(١) اللسان « صرر » .
(٢) اللسان « صرر » .
(٣) اللسان « صرر » .
(٤) اللسان « صرر » .
(٥) ٣ / ٢٦٣ .
(٦) ص ٦٧٣٨ .
(٧) « صرر » .
(٨) هو الصرد بضم الصاد المشددة وفتح الراء . وأخذ اسمه من لونه اذ الخطبة بالضم ، لون كدر مشرب حمرة فى صفرة أو غبرة ترهقها خضرة . القاموس .
(٩) اللسان « صرر » .
(١٠) أنظر مثلا اللسان « عتا » .
(١١) ابن كثير ٤/٤١٢ وتفسير الطبرى ٢٩/٣٢ .

وهذا القول فى الآية التالية معمق لاستمرار العذاب ، مبين لنهاية كل حى منهم . قال تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » . فما معنى القول : سخرها ؟ ان جملة سخر من السخرة بالضم . ومعناها حمل الآخرين على العمل ، على جهة التكليف والقهر دون أجر ولا ثمن(١) . يقال مثلا : سخره تسخيرا وكذلك تسخره وسخره (بتشديد الخاء) سخريا وسخريا (بكسر السين وضمها) وسخره (بفتح الخاء مفردة) اذا كلفه ما لا يريد وقهره(٢) .

فاذا تحولنا الى الآية الكريمة تبينا أن جملة سخرها ، العائدة على الريح ، تردف بحرف الجر على الدال على الأستعلاء ، مما يجعل جملة سخر قادرة على افادة معنى سلط مثلا ، اضافة الى دلالتها على السخرة . فكأن المعنى سخر الريح وسلطها على عاد قوم هود(٣) .

فاذا تحولنا الى القول فى الآية الكريمة الدال على طول امتداد العذاب : « سبع ليال وثمانية أيام » وجدنا أنفسنا مع الرقم العجيب فى مرتبة الآحاد . انه الرقم سبعة ، الذى يبين عدد ليالى الريح الصرصر فى حق عاد ، والذى يرتبط بالكثير من الحقائق والأحوال . فالسماوات سبع ومن الأرض مثلهن . قال تعالى(٤) : «الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » ولجهنم سبعة أبواب . قال تعالى(٥) : « لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم » وأهل الكهف سبعة(٦) قال تعالى(٧) : « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » والمثانى سبع . قال تعالى(٨) : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » والسبع المثانى هى سورة الفاتحة التى

---

(١) أنظر اللسان « سخر » .
(٢) اللسان « سخر » .
(٣) أنظر مثلا تفسير ابن كثير ٤/٤١٢ .
(٤) الطلاق ، ١٢ .
(٥) الحجر ، ٤٤ .
(٦) وفق الرأى الراجح ، رأى جمهور العلماء .
(٧) الكهف ، ٢٢ .
(٨) الحجر ، ٨٧ .

تتكون من سبع آيات . والبحر يمده من بعده سبعة أبحر فى قوله تعالى من سورة لقمان(١) : « ولو انما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم » . والقرآن الكريم أنزل على سبعة أحرف(٢) وأيام الأسبوع سبعة . والطواف والسعى سبع مرات ورمى الجمرات بسبع حصيات . وقوس قزح يتكون ، كما يقول المختصون ، من سبعة ألوان . واذا مرت على السليم ، أى اللديغ ، سبعة أيام ، استبشر العرب ، فى ضوء تجاربهم ، بنجاته من الموت بالسم الذى سرى فى جسده . الخ الخ(٣) .

---

(١) آية ٢٧ .

(٢) انظر هنا مثلا الاتقان ١/١٦٤ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مصر ١٩٧٤ م .

(٣) أثناء كتابة هذه الدراسة جاء فى جريدة البلاد السعودية فى الصفحة الخامسة من عدد الاثنين ١٣٩٧/٦/١٢ هـ « خبر » له علاقة بهذا الرقم سبعة وعنوان الخبر أول رجل فى العالم ينجو من سم الافعى « مامبا » القاتل ومفاده أن خبير الافعى واسمه سيل تمكنت الافعى مامبا وطولها اثنا عشر قدما أن تنهشه . وسم افعى المامبا الذى هو أشد أنواع السموم فتكاً للإنسان يقتل ضحيته فى ظرف خمس دقائق. غير أن سيل تمكن بواسطة تنظيف جرحه وحقن نفسه بمصل مضاد لسم الافعى من أن يحافظ على وعيه لمدة خمس وأربعين دقيقة ، خلال نقله بسيارة اسعاف الى مستشفى بعاصمة جنوب أفريقيا . لكنه بعد أن نقل بعربة الى غرفة الطوارىء داخل المستشفى كان قد أشرف على الموت . وقد شاءت ارادة الله تعالى انقاذ حياة سيل . فعندما كان مديرا لحديقة مخصصة لصيانة الحيوان قرب العاصمة بريتوريا انشأ صداقة مع عالم متخصص بعلم وظائف الاعضاء فى جامعة «جوها نسبرج» ، كان يقوم بتجارب على سموم الافاعى. لقد كان ذلك العالم يحقن الارانب بالسموم ويبقيها على قيد الحياة باستخدام رئات اصطناعية . الى أن يزول الخطر عنها وتستعيد قواها ثانية .

وبينما كان سيل مستلقيا فى غرفة الطوارىء فكر بتجارب صديقه العالم على الارانب ، وقبل دقائق فقط من فقدانه الوعى ووقوعه فى غيبوبة أصر على الاطباء أن يستخدموا الرئات الاصطناعية لمعالجته ، وهو ما لم يفعلوه بتاتا من قبل بالنسبة لضحايا المامبا السودان . واستخدام الاطباء تلك الرئات الاصطناعية ونجا سيل من الموت ..

وخلال الايام الستة التالية ، عاش سيل فى رعب شديد . وعلى الرغم من أن حركته قد شلت تماما الا أنه احتفظ بكامل وعيه .

وفى اليوم السابع بدأ يحرك أصبع قدمه .

وبعده بيوم واحد أخذ يحرك أصبع يده وفتح احدى عينيه . وخلال أسبوع كان قد شفى تماما .

لقد شاءت ارادة الله تعالى ، امعانا فى النكال بعاد قوم هود ، واستئصالا لشأفتهم أن يستمر هبوب الريح العاتية شديدة البرد والصوت ، سبع ليال وثمانية أيام مستمرات . وان الرقم ثمانية هنا بشأن الأيام يعنى أنها ابتدأت صباحا وانتهت مساء بنهاية النهار الثامن . وان ابتداءها صباحا ، يمكن أن يفهم منه أن بعض القوم كانوا قد خرجوا الى أعمالهم وانتشروا فى الأرض طلبا للرزق . وينبغى أن يكون هؤلاء قوام القوم الصرعى الذين طوحت بهم الريح فى الفضاء فغدوا كأنهم أعجاز نخل خاوية . وان استمرار الريح سبع ليال وثمانية أيام حسوما يعنى أنه لم تبق من القوم نفس واحدة باقية . أما السؤال فى الآية الكريمة الأخيرة « فهل ترى لهم من باقية » ؟ فانه معمق لاحساس كهذا ومقرر له . خاصة وأن الاستفهام الذى يشد بطبعه الانتباه شدا ، يتعلق بقضية انتهت منذ وقت لا يعلم حقيقته الا الله تعالى عالم السر وأخفى .

فما معنى « حسوما » فى قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » ؟ كى نصل الى المعنى أو المعانى التى تفيدها هذه اللفظة . فى امكاننا أن نستشير المعاجم اللغوية . ولو بحثنا عن أكثر الألفاظ شيوعا مما له علاقة بهذه المادة لتبينا أنهما لفظتا الحسام والحسم . فما الصفة التى روعيت فى السيف حينما أطلق عليه لفظ الحسام ؟ انها صفة الحسم — بمعنى القطع — التى تعتبر المحور الذى تدور حوله ألفاظ هذه المادة المشتقة عنها ، بما فى ذلك لفظة حسوم فى الآية الكريمة . فما معنى الحسم ؟ يتعلق بالحسم سلسلة من المعانى المترابطة فكأنها الحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . فبما أن الحسم ، ومعناه القطع(١) يمكن أن يكون فى حرب وفى سلم ، وبما أنه فى الحرب مثلا ، يكتفى بعملية القطع غالبا ، لذا أطلقت لفظة حسام على السيف : « لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته »(٢) أما فى السلم ، وبخاصة ازاء عرق ينبغى حسمه أو عضو ، فان ثمة عمليتين للحسم لا واحدة . الأولى حسم العضو أى قطعه . والثانية حسم الدم أى قطعه ومن هنا كان الحسم بمعنى القطع مرة وبمعنى الكى بالنار المتتابع مرة

---

(١) اللسان « حسم » .

(٢) تفسير القرطبى ص ٦٧٣٨ .

أخرى . أما عملية القطع أو الحسم الأولى فتتمثل فى قطع العرق أو العضو الذى ينبغى حسمه . وأما العملية الثانية المترتبة على الأولى فتتمثل فى كى العرق أو العضو بالنار تتابعا بقصد حسم الدم أى منعه من استمرار التدفق . ومن هنا قيل : « حسم العرق قطعه ثم كواه لئلا يسيل دمه وهو الحسم . وحسم الداء قطعه بالدواء(١) .

فاذا تحولنا الى لفظة الحسوم فى الآية الكريمة ، تبينا أنها قد حسمت عادا قوم هود وقضت عليهم تماما بسبب تتابعها . ان من المفسرين من نظر الى اللفظة من زاوية القطع كالزجاج . فقد ذهب الى أنها تحسمهم حسوما ، أى تفنيهم ، وهى مصدر مؤكد . ويجوز أن يكون مفعولا له . أى سخرها عليهم هذه المدة للاستئصال(٢) ومن المفسرين من نظر الى اللفظة من زاوية الحسم بمعنى التتابع : « قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وكرمة والثورى وغيرهم : حسوما متتابعات »(٣) ومن المفسرين من نظر الى النتيجة الأليمة لاستمرار هذه الريح العقيم فقال ان حسوما بمعنى مشائيم عليهم(٤) وجاء فى اللسان(٥) القول : « أى شؤما عليهم ونحسا » . ومن هنا قيل الحسوم الشؤم . وأيام حسوم وصفت بالمصدر تقطع الخير أو تمنعه(٦) . وقيل : الأيام الحسوم : الدائمة فى الشر خاصة . وعلى هذا فسر بعضهم هذه الآية(٧) .

ونحن اذا نظرنا الى ما حدث لعاد قوم هود نجد أن كل ما أشار اليه المفسرون بشأن لفظة « حسوما » قد وقع فى حقهم . على أننا اذا بحثنا عن أولى الزوايا بمراعاة السياق لها فى قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » لتبينا أنها عملية تتابع العذاب . فمن الجائز أن يتبادر الى الذهن أن العذاب كان متقطعا مما لا يتمشى مع العنف الذى أريد للعذاب أن يتمثل فيه .

---

(١) اللسان « حسم » .
(٢) تفسير القرطبى ص ٦٧٣٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤١٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤/٤١٢ .
(٥) اللسان « حسم » .
(٦) اللسان « حسم » .
(٧) اللسان « حسم » .

ولكن حينما جاءت لفظة « حسوما » أفهمت أن الليالى السبع والأيام الثمانية ، كانت متتابعة وغير منقطعة . وهذه الحقيقة خير مسعف على الوصول الى النتيجة التى قررها السياق : « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » . وبناء على ذلك نحن نرى رأى جمهور العلماء الذى رجحه ابن جرير الطبرى فى قوله ان حسوما بمعنى متتابعة « لاجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك »(١) .

والآن نتحول الى الشق الثانى من الآية الكريمة . قال تعالى : « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » . ويلوح أننا بحاجة الى أن نقف عند كل لفظة ، بل لؤلؤة فى عقد هذا الشق من الآية الكريمة . وأول ما يصادفنا جملة « فترى » التى يتم فيها التحول أو الالتفات من الغائب الى الحاضر قال تعالى : «سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى» وبالاضافة الى قدرة الالتفات على شد الانتباه ، بسبب التحول مجردا ، هو فى مثل هذه الحال ، التى يتم فيها اللجوء الى أقوى الحواس قدرة على الالتقاط والانتشار ، يجعل المخاطب يحس فى أعماقه بأن له أكبر نصيب من الاهتمام ، فيسهل نقله الى تلك الأزمنة السحيقة ، أو نقل الأزمنة السحيقة اليه ، كى يبصر بعينى رأسه جثث القوم وأشلاءهم . ان ارتباط جملة « ترى » بأقوى الحواس وهى العين التى تبصر القوم صرعى ، مقو لقدرة الالتفات ، على جمع الأزمنة فى ظرف ، وسحبها الى الأمام أو الوراء فى لطف ، فكأن الرائى ، وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم أساسا — ومن حق كل أحد أن يفهم وراء ذلك أنه هو الموجه اليه الخطاب — قد أعيد من أجله لف شريط الزمان كى يبصر القوم . أو أن القوم الصرعى أنفسهم ، قد نقلوا أمام من يوجه اليه الخطاب كى يبصرهم جميعا بعينى رأسه ، لا حركة ولا صوت ولا حس .

أما لفظة « قوم » فى الآية الكريمة ، فانها تدل على الرجال والنساء والولدان ، على الرغم من أن اللفظة أساسا تدل على

---

(١) تفسير الطبرى ، ٣٣/٢٩ .

الرجال والنساء معا ، أو على الرجال خاصة(١) والذى يجعل اللفظة ذات معان متعددة هو سياق الكلام . فحينما تستعمل لفظتا قوم ونساء فى كلام يفهم أن لفظة قوم تدل على الرجال ، كما فى قوله تعالى(٢) : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » وقال زهير(٣) :

وما أدرى وسوف أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وحينما تستعمل لفظة القوم منفردة،من الجائز أن يفهم من السياق أن المراد الرجال أساسا.ومن الجائز أن يدخل فيهم ضمنا النساء والولدان وبما أن قوم عاد قد أهلكهم الله تعالى عن بكرة أبيهم ، فمن الجائز أن يفهم من اطلاق لفظة القوم هنا ، أن المراد الرجال والنساء والولدان . ولاختيار الآية الكريمة لفظة القوم بالذات معنى عميق، يبدو من تأمل المعنى المشترك لمشتقات الأصل اللغوى . ان المعنى المشترك هو القيام الذى يتم فى العادة من أجل القدرة عليه ، حتى ان من العلماء من ذهب الى أنها اسم جمع(٤) . جاء فى التاج(٥) « قال ابن الأثير : القوم فى الأصل مصدر قام ، ثم غلب على الرجال دون النساء . وسموا بذلك لأنهم قوامون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها . وروى عن أبى العباس النفر والقوم والرهط . هؤلاء معناهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم للرجال دون النساء » وكأن اختيار الآية الكريمة هذه اللفظة معمق لضعف عاد وهوانها على الله تعالى .

أما الجار والمجرور « فيها » من قوله تعالى : « فترى القوم فيها صرعى » فالمظنون أنه يعود الى الليالى السبع والأيام الثمانية . لأنها أقرب مذكور بصريح اللفظ وأوضحه . ويفهم من عودة الجار والمجرور الى الليالى والأيام التى قضى فى أثنائها على عاد بالكلية ،

---

(١) أنظر اللسان « قوم » .
(٢) الحجرات ، ١١ .
(٣) اللسان « قوم » .
(٤) انظر اللسان « قوم » .
(٥) « قوم » . وانظر اللسان « قوم » .

أن قدرة القوم على مقاومة الريح الصرصر قد تفاوتت بسبب القدره الذاتية للأشخاص ، وبسبب اختلاف الظروف والأحوال . على أن كل وسائل المقاومة قد انهارت خلال الليالى والأيام التى هبت فيها الريح الصرصر دون انقطاع ، بحيث انه حينما كفت الريح عن الهبوب بارادة العزيز الحكيم . كان القوم قد أبيدوا عن بكرة أبيهم بارادة مالك الملك ، فلا ترى الا صريعا .

ولفظ صرعى بمعنى موتى وهلكى ، وهو جمع صريع(١) قادر على رسم الصور البشعة للأحوال التى آل اليها القوم . لأن معنى الصرع الطرح بالأرض (٢) ومعنى مصارع القوم : حيث قتلوا(٣) فكأن هذا اللفظ « صرعى » قادر على الايحاء بأن موت القوم كان بمثابة القتل فى كل الصور الممكن تصورها نتيجة لخطف الريح الصرصر للقوم ، وهو يهابهم فى أمكنة سحيقة ، فى كل شق وناحية، سبع ليال وثمانية أيام حسوما . وكأن هذه الصور البشعة من القتل كانت من نصيب الجميع بلا استثناء . وهل فى امكان أحد أن يتمثل واحدا من عاد مات حتف أنفه ، مسجى فى الموضع الذى قبض فيه ، اثر الريح الصرصر التى استمر هبوبها تلك الليالى والأيام ؟ لا يستطيع أحد أن يتمثل ميتا واحدا . ومثل هذا العجز عن التمثل معمق المغزى العميق الذى ترمى اليه لفظة « صرعى » فى الآية الكرية . قال تعالى : « فترى القوم فيها صرعى » .

وننتقل الآن الى الجزء المتعلق بالتشبيه المقرب للأذهان حال عاد بعد هلاكهم . قال تعالى : « كأنهم أعجاز نخل خاوية » اننا لازلنا بحاجة الى أن نكمل وقوفنا عند كل لفظة بل درة فى الشق الثانى من الآية الكريمة . اننا بحاجة الى الوقوف مليا عند الألفاظ الثلاثة على التوالى : اعجاز ، نخل ، خاوية .

فاذا تناولنا لفظة « اعجاز » تبينا أن اختيارها لحكمة جليلة . فلو تأملنا مشتقات المادة الأصلية لهذه اللفظة لتبين أنها تدور فى

---

(١) تفسير القرطبى ص ٦٧٤٠ والبحر المحيط ٣١٩/٨ .
(٢) اللسان « صرع » .
(٣) اللسان « صرع » .

مجموعها حول العجز بمعنى الضعف وبمعنى العجز نقيض الحزم(١) وربما كان شافيا وكافيا أن نذكر هذه المجموعة من الألفاظ دليلا على ما نقول : العجوز من النساء الشيخة الهرمة . والجمع عجز «بالسكون» وعجز «بالضم» وعجائز . ويقال للرجل وللمرأة عجوز. وأعجاز الأمور أواخرها . والعجز ما بعد الظهر منه .... والجمع أعجاز لا يكسر على غير ذلك . وعجز بيت الشعر خلاف صدر. وعجيزة المرأة عجزها . وعجز الرجل مؤخره وجمعه الأعجاز(٢) .

ولاشك أن اختيار الآية الكريمة لفظة الأعجاز بالذات(٣)،له مغزاه البعيد فى تعميق حقيقة الذل والهوان اللذين كانت فيهما عاد . وبما أن القول فى الآية الكريمة « أعجاز نخل » بمعنى جذوع نخل أو أصول نخل ، فان اختيار لفظة أعجاز قادر على الافهام بأن هذه الأصول خاصة بنوع من النخل طال العهد بموته الطبيعى وسقوطه. فليست تلك الأصول أجذاعا لنخل حى مورق أساسا ، شذب وهذب كى ينتفع بتلك الأصول القوية لقرب عهدها بالحياة . ان شيئا من ذلك لا يراد . انما المراد أن النخل مات لانقطاع اسبابه بالحياة ، وبسبب الفترة الطويلة على موته لم يبق منه سوى أعجازه وهذه الأعجاز لاختلاف الليل والنهار وتقلبات الأجواء ،لم تعد واحدة منها قائمة على أصولها ، والذى هيأ لفهم كهذا هو أن لفظة «صرعى» فى قوله تعالى : « فترى القوم فيها صرعى » التى افهمت أن الطرح بأرض ، وهو معنى الصرع (بسكون الراء) كان من نصيب كل أفراد عاد . بل ان الأمر بشأن الأعجاز لم يقف عند هذا الحد ، انما تجاوزه الى كونها لتطاول الدهور عليها ، تسرب البلى الى داخلها فأصبحت خواء تنخر الريح اذا مرت خلالها . قال تعالى : « كأنهم أعجاز نخل خاوية » . والملاحظ أن البلى يتسرب الى قلوب اعجاز النخل ، والمعروف أن ذلك البلى دليل على بعد العهد الأكيد بالحياة وكأن لفظة « خاوية » فى الآية الكريمة ، قادرة على اكمال المنظر الذى انتهت اليه عاد بعد أن أبيدت عن آخرها وبدأ الفناء يتسرب الى أفرادها . وكأن لفظة « خاوية » تريد أن تلفت الانتباه الى

---

(١) انظر اللسان « عجز » .

(٢) الامثلة كلها من لسان العرب مادة « عجز » .

(٣) وليس الاجذاع مثلا لارتباط هذه بالفتوة والشباب . انظر القاموس مثلا .

ما يسيل من باطن القوم فى طريقهم — اثر خواء الباطن — الى اختفاء الظاهر ، الذى عمقه السؤال فى الآية الكريمة التالية ، والذى لا يختلف فى الاجابة عنه شخصان . قال تعالى : « فهل ترى لهم من باقية » « قال ابن عباس : خاوية ، خربة . وقال غيره : بالية . أى جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتا على أم رأسه فيشرخ رأسه وتبقى جثة هامدة ، كأنها قائمة النخلة اذا خرجت بلا أغصان . وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور »(١) .

ان الاستفهام قادر على شد الانتباه شدا كما هو معروف ، فكيف اذا تكررت ذات الجملة « ترى » التى جاءت قريبا ، فى الآية السابقة ، والتى لها من قوة الوقع ما ليس لسواها ، لأنها تتعامل مع أكثر الحواس قدرة على العمل فى مثل هذه المناسبة . وان حرف الجر من يدل على التبعيض . ومعروف أن نفى البعض أبلغ من نفى الكل . وقد فهم القول « من باقية » فى قوله تعالى : « فهل ترى لهم من باقية » ؟ أى من فرقة باقية . أو نفس باقية . وقيل من بقية(٢) وقد نص ابن جرير فى تفسيره(٣) على أن هذا رأى بعض أهل المعرفة بكلام العرب من البصريين . وأضاف : « ويقول : مجازها مجاز الطاغية مصدر » . « وقيل : من بقاء ، فاعله بمعنى المصدر نحو العاقبة والعافية . ويجوز أن يكون اسما أى هل تجد لهم أحدا باقيا »(٤) والبقاء ضد الفناء(٥) قال الفراء : يريد من بقاء . ويقال : هل ترى منهم باقيا . كل ذلك فى العربية جائز حسن(٦) . « وقال ابن الانبارى : من باقية أى من باق والهاء للمبالغة . وقال أيضا من فئة باقية »(٧) .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤١٢ .
(٢) تفسير القرطبى ص ٦٧٤٠ .
(٣) ٢٩/٣٣ .
(٤) تفسير القرطبى ص ٦٧٤٠ .
(٥) اللسان « بقى » .
(٦) اللسان « بقى » .
(٧) البحر المحيط ٨/٣٢١ .

القسم الثالث

هلاك فرعون وقوم لوط والخاطئين
واكتشاف نظرية قرآنية لغوية جديدة
الآيتان (٩ و١٠)

القسم الثالث :

قال تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » .

فمع الآية الكريمة الأولى : قال تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » وأول ما نود الوقوف عنده جملة « جـاء » التى تقذف الى أذهاننا بجملة « أتى » صنوها . وقد أوحى القرآن الكريم ، بالفروق الدقيقة بين كل من جملة « جاء » وجملة « أتى » بحيث انه يصح القول : ان جملة « جاء » لا تستعمل فى القرآن الكريم الا دليلا على القرب . سواء أكان مكانيا أم زمانيا أم نفسيا . وان جملة « أتى » لا تستعمل فى القرآن الكريم الا دليلا على البعد . سواء أكان مكانيا أم زمانيا أم نفسيا .

ولو أننـا القينا نظرة متأملة على استعمالات مشتقات هاتين المادتين فى القرآن الكريم لانتهينا الى هذه الحقيقة . وتبدو دلالة أتى على البعد وجاء على القرب حينما يقرن بين اللفظتين فى سياق . على نحو ما جاء فى سورة الأعراف(١) قال تعالى : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » . وفى سورة الفرقان(٢) قال تعالى : « ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » . ففيما يأتى به الكافرون من انزال الرسول الكريم منزلة الساحر والكاهن والشاعر وما الى ذلك بعد عن الحق واسفاف . بينما ما يجىء به القرآن الكريم هو الحـق والصدق . يضاف الى هذا أن السياق رتب الحدثين ترتيبا زمنيا

---

(١) آية ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) آية ، ٣٣ .

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا »(١) وفى سورة مريم(٢) قال تعالى : « فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا » فمريم البتول أتت بعيسى عليه السلام من مكانها القصى . وحينما وصلت قومها كانت حاملة بين يديها وضامة الى صدرها كلمة الله تعالى الذى لم يفهم قوم مريم بعد المعجزة التى تم عن طريقها وجوده . وفى سورة الحجر(٣) قال تعالى : « فلما جاء آل لوط المرسلون . قال انكم قوم منكرون . قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وانا لصادقون » . فالمرسلون جاءوا بشخوصهم ومعهم العذاب وقد دلت جملة « جاء » فى المناسبتين على ترابط الأمرين المجىء والعذاب . وناسبت جملة « أتى » الحق الذى استبعده الكافرون « وأتيناك بالحق » والذى مهد له بالقول : « كانوا فيه يمترون » وفى سورة العنكبوت(٤) قال تعالى : « ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة » ان جملة « جاء » توحى بامكان مجىء العذاب القريب . « وأتى » بأن ذلك سوف يتم رغم استبعاد القوم له بل انكاره . وفى سورة الأعراف(٥) قال تعالى : « قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين » . فالمجىء يدل على المصاحبة . والاتيان يدل على استبعاد المتكلم للعذاب . وفى سورة يوسف(٦) قال تعالى : « وقال الملك ائتونى به . فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن » ان جملة « أتى » أوحت ببعد يوسف عن قصر الملك فقد كان آنذاك لا زال فى السجن . وجملة « جاء » أوحت بوصول الرسول الى يوسف فى ذلك السجن . وفى سورة مريم أيضا(٧) جاء على لسان ابراهيم عليه السلام قوله تعالى : « يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » . فالعلم الذى جاء ابراهيم عليه السلام أخيرا لم

---

(١) الاسراء : ٨١ .
(٢) آية : ٢٧ .
(٣) الآيات : ٦١ ـ ٦٤ .
(٤) آية ٥٣ .
(٥) آية : ١٠٦ .
(٦) آية : ٥٠ .
(٧) آية : ٤٣ .

يأت آزر من قبل . وجاء فى سورة المؤمنون(١) قوله تعالى : « افلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » .

ولعلنا تبينا مما سبق أن القرب الذى يرتبط بجملة « جاء » والبعد الذى يرتبط بجملة « أتى » لا يقتصر على الزمان . بل يشمل القرب والبعد المكانيين والنفسيين أيضا . وفى امكاننا أن نضرب أمثلة من القرآن الكريم على ذلك . وسيكون حديثنا بشأن جملة « جاء » مراعيا القرب المكانى فالقرب النفسى فالقرب المكانى والنفسى معـــا .

القرب المـــكانى :

فيما يتصل بالقرب المكانى ، يمكن أن نستدل عليه بقوله تعالى(٢) « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » ان قرب المنافقين بالجسم لا بالنفس والروح هنا . وقوله تعالى(٣) : « وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله » وقوله تعالى(٤) : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » .

القرب النفسى :

وفيما يتصل بالقرب النفسى يمكن أن نستدل عليه بقوله تعالى(٥): « وان من شيعته لابراهيم . اذ جاء ربه بقلب سليم » وقوله(٦) : « من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » .

قرب مكانى ونفسى :

ويلاحظ أن القرب النفسى يمكن أن يرتبط بصفة خاصة بالقرب

---

(١) آية ، ٦٨ .
(٢) المنافقون ، ١ .
(٣) يونس ، ٢٢ .
(٤) النساء ، ٤١ .
(٥) الصافات : ٨٣ ، ٨٤ .
(٦) ق : ٣٣ .

المكانى . ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى(١) : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » واللطيف أن لفظة نفس جاءت فى الآية الكريمة . فلا يقتصر القرب على كونه صلى الله عليه وسلم قريبا بالجسم من أصحابه ، وانما هو قريب بالنفس والروح أيضا . فقد شاءت ارادة الله تعالى أن يكون الرسول الى البشر من جنسهم كى يألفوه ، وتتم بذلك الفائدة من ارساله . وقوله تعالى(٢) : « حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه » واللطيف أن القرب المكانى الذى أشارت اليه جملة جاء أردف بقرب نفسى أوحى به القول : « لم يجده شيئا » وقوله تعالى (٣) : « حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » لقد جاء نصر الله تعالى بعد أن تمكن اليأس أو كاد من أنفس رسل الله تعالى فكان له بسبب قربه المكانى قرب بالأنفس ولصوق من أجل التشوق له والشوق اليه . وقوله تعالى(٤) : « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى » ان القرب النفسى فى هذا الصدد مقدم على البعد المكانى الذى يوحيه القول : « من أقصى المدينة رجل يسعى ». والذى جعل القرب النفسى يتقدم ، مجىء كل من جملة « جاء » الدالة على القرب أو تمنيه ، وجملة « يسعى » وكل ذلك معمق لاخلاص حبيب النجار ، الذى كان حريصا كل الحرص على ايمان قومه وأتباعهم رسل الله تعالى . ان البعد المكانى ، لو كان له كبير اعتبار ، أو لو كان له ذات النصيب للقرب النفسى ، لجاءت جملة « أتى » فقيل : وأتى من أقصى المدينة رجل يسعى . فدل مجىء جملة « جاء » على أن الهدف الأكبر للآية الكريمة ، اظهار حسن نوايا هذا الرجل الداعى الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . ولم يكن يهمه فى قليل أو كثير المجهود الكبير الذى بذل ، حينما قطع المدينة من أقصاها الى أقصاها ، فى أقصى سرعة ممكنة على قدميه ، دون أن يفكر فى اتخاذ ركوب مثلا . وأن الشىء ذاته يقال بشأن قوله تعالى فى سورة القصص(٥) : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى»

---

(١) التوبة ، ١٢٨ .
(٢) النور ، ٣٩ .
(٣) يوسف ، ١١٠ .
(٤) يس ، ٢٠ .
(٥) آية ، ٢٠ .

فهذا الرجل كان يهمه انقاذ موسى عليه السلام من القتل ، دون ان يأبه فى قليل أو كثير للمجهود الخبير الذى يبذل سعيا على قدميه .

فاذا تحولنا الى جملة « أتى » تبينا أن البعد الذى يرتبط بهـا لا يقتصر على الزمان ، بل يشمل البعد المكانى والنفسى كما المحنا من قبل . وسيكون حديثنا بشأن جملة « أتى » مراعيا البعد الزمانى، فالمـكانى ، فالنفسى ، فالزمانى والنفسى ، فالمـكانى والنفسى ، فالزمانى والمكانى والنفسى . فالبعد المكانى والزمانى معا .

بعـد زمانى :

فيما يتصل بالبعد الزمانى يمكن أن نستدل عليه ـ اضافة الى ما سبق ـ بقوله تعالى(١) : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون » وقوله(٢) : « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون» .وقوله(٣) :«لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » وقوله تعالى(٤) : « قل بلى وربى لتأيتنكم » وقوله تعالى(٥) : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمـد » وقوله تعالى(٦) : « فسـوف يأتيهم أنبـاء ما كانوا به يستهزئون » وقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام(٧) : « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » .

بعـد مكانى :

وفيما يتصل بالبعد المكانى يمكن أن نستدل عليه بقوله تعالى(٨) « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » وقوله

---

(١) الذاريات ، ٥٢ .
(٢) القصص ، ٤٦ .
(٣) السجدة ، ٣ .
(٤) سبأ ، ٣ .
(٥) الصف ، ٦ .
(٦) الانعام ، ٥ .
(٧) يوسف ، ٣٧ .
(٨) البقرة ، ١٤٥ .

تعالى(١) : « وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها » وقوله تعالى(٢) : « أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين » وقوله تعالى(٣): « وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين » . وقوله تعالى:(٤) « ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه » وقوله تعالى(٥) : « فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما » . وقوله تعالى(٦) : « قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » وقوله تعالى(٧): « ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك » وقوله تعالى(٨) : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » وقوله تعالى (٩) : « يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا » . وقوله تعالى(١٠) : « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية » وقوله تعالى(١١) : « أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا» . وقوله تعالى(١٢) : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة» وقوله تعالى(١٣) : « فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله» وقوله تعالى(١٤) : « أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين» وقوله تعالى(١٥) : « بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم » وقوله تعالى(١٦) :

---

(١) الأنبياء ، ٤٧ .
(٢) النمل ، ٢١ .
(٣) النور ، ٤٩ .
(٤) التوبة ، ٩٢ .
(٥) الكهف ، ٧٧ .
(٦) النمل ، ٣٨ — ٤٠ .
(٧) النساء ، ١٠٢ .
(٨) البقرة ، ١٨٩ .
(٩) النبأ ، ١٨ .
(١٠) الانعام ، ٣٥ .
(١١) البقرة ، ١٤٨ .
(١٢) آل عمران ، ١٦١ .
(١٣) لقمان ، ١٦ .
(١٤) الطور ، ٣٨ .
(١٥) آل عمران ، ١٢٥ .
(١٦) الملك ، ٣٠ .

« قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » . وقوله تعالى(١) : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . وقوله تعالى(٢) : « ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا » . وقوله تعالى(٣) : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بمـــا كانوا يصـــنعون » .

وان مثل هذه الآية الكريمة من سورة البقرة(٤) « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » يمكن أن يقال بشأنها انها تشير الى بعد الآية المكانى او المعنوى بمعنى المنزلة .

بعـــد نفسي :

وفيما يتصل بالبعد النفسى ، يمكن أن نستدل عليه بقـــوله تعالى(٥) : « فان أتين بفاحشـة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » وكأن ثمة تمنيا . أن تكون الفاحشة بمنأى عن الفتيات المؤمنات . ويقاس على هذا سواه . وقوله تعالى(٦) : « لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » وقوله تعالى(٧) : « من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » وقوله تعالى(٨) : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما» . وقوله تعالى(٩) : «ولا تعضلوهن

---

(١) الحج ، ٢٧ .
(٢) البقرة ، ٢٦٠ .
(٣) النحل ، ١١٢ .
(٤) آية ، ١٠٦ .
(٥) النساء ، ٢٥ .
(٦) الاعراف ، ٨١ .
(٧) الاحزاب ، ٣٠ .
(٨) النســـاء ، ١٦ .
(٩) النســـاء ، ١٩ .

لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة » وقوله(١) : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وارجلهن » وقوله(٢) : « ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة » .

بعد زمانى ونفسى :

وفيما يتصل بالبعد الزمانى والنفسى ، يمكن أن نستدل عليه بقوله تعالى (٣) : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة » وقوله(٤) : « ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى » .

بعد مكانى ونفسى :

وفيما يتصل بالبعد المكانى والنفسى يمكن أن نستدل عليه بقوله تعالى(٥) : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء » وقوله(٦) : « فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » وقوله(٧) : « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين » وقوله(٨) : « أينما يوجهه لا يأت بخير » . وقوله(٩) : « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك » . وقوله(١٠) : « حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا » .

---

(١) الممتحنة ، ١٢ .
(٢) الطلاق ، ١ .
(٣) سبأ ، ٣ .
(٤) التوبة ، ٥٤ .
(٥) النور ، ٤ .
(٦) النور ، ١٣ .
(٧) الكهف ، ١٥ .
(٨) النحل ، ٧٦ .
(٩) المائدة ، ٤١ .
(١٠) الانعام ، ٧١ .

بعد زمانى ومكانى ونفسى :

وفيما يتصل بالبعد الزمانى والمكانى والنفسى ، يمكن أن نستدل عليه بقوله تعالى(١) : « والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا » . وقوله(٢) : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون » وقوله(٣) : « فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » وقوله(٤) : « وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين » وقوله(٥) : « فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » وقوله(٦) : « فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » وقوله(٧) : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » وقوله(٨) : « قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله » وقوله(٩) : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعو من استطعتم من دون الله » وقوله(١٠) : « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه» وقوله(١١): «فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين»: وقوله(١٢) : « ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين » وقوله(١٣) : « وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وقوله(١٤) : « عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ،

---

(١) الأحزاب ، ١٨ .
(٢) الاعراف ، ٩٧ ، ٩٨ .
(٣) الأعراف ، ٧٠ .
(٤) الاعراف ، ٧٧ .
(٥) الأنفال ، ٣٢ .
(٦) هود ، ٣٣ .
(٧) البقرة ، ٢٣ .
(٨) يونس ، ٣٨ .
(٩) هود ، ١٣
(١٠) القصص ، ٤٩ .
(١١) الصافات ، ١٥٧ .
(١٢) الجاثية ، ٢٥ .
(١٣) ابراهيم ، ٢٤ .
(١٤) يوسف ، ٨٣ .

انه هو العليم الحكيم » وقوله(١) : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » وقوله تعالى(٢) : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » وقوله(٣) : « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » .

بعد مكانى وزمانى :

ويمكن أن يستدل على هذا النوع بقوله تعالى(٤) : « فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » .

أما وقد تبينا المعانى المرتبطة بكل من جاء التى تدل على القرب الزمانى والمكانى والنفسى . وأتى التى تدل على البعد الزمانى والمكانى والنفسى . ففى امكاننا أن نفهم من قوله تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » أن هذه الفعلة الخاطئة أو الفعلات ، التى صاحبت فرعون ومن شاكله ، كانت قريبة من أفئدتهم كل القرب ، بحيث انها لم تدع لما سواها من خير موضعا . ان الخاطئة ليست ضخمة فى ذاتها فقط ، انما هى ضخمة فى نفوس الذين جاءوا بها أيضا . وقد فسرت الخاطئة بالخطأ العظيم الذى يرتكب تعمدا(٥) ويقول الزمخشرى(٦) : « بالخاطئة ، بالخطأ . أو بالفعلة أو الأفعال ذات الخطأ العظيم » . ويقول القرطبى(٧): « بالخاطئة ، اى بالفعلة الخاطئة ، وهى المعصية والكفر . وقال مجاهد : بالخطايا التى كانوا يفعلونها . وقال الجرجانى : أى بالخطأ العظيم . فالخاطئة مصدر » وجاء فى اللسان(٨) : « وحكى أبو على الفارسى عن أبى زيد : أخطأ خاطئة ، جاء بالمصدر على لفظ فاعله ، كالعافية والجازية » . وسنتبين فى السورة الكريمة ، اشارة الى

---

(١) فصلت ، ٤٢ .
(٢) الاسراء ، ٨٨ .
(٣) الطور ، ٣٤ .
(٤) طـــه ، ١٢٣ .
(٥) أنظر القاموس « خطأ » والبحر المحيط ، ٣٢٧/٨ .
(٦) الكشـــاف ، ٢٦٣/٣ .
(٧) التفســـير ، ص ٦٧٤١ .
(٨) (خطأ) .

الخاطئين فى قوله تعـــالى : « لا يأكله الا الخاطئون » اى الذين يتعمدون ارتكاب الخطـــأ .

ونستطيع أن نفهم أن خطأ فرعون الأكبر ، ادعاؤه الالوهية ، بعد تكذيب موسى عليه السلام وانكاره البعث . وان الشيء نفسه ـــ أعني تكذيب رسول الله تعالى وانكار البعث ـــ يقال عن قوم لوط عليه السلام ، وكل الخاطئين أمثالهم . وحينما لا يمتلىء القلب بخشية الله تعالى ، ولا يهتدى المرء بنور الايمان والحق ، فان قلبه يمتلىء بهوى النفس الامارة بالسوء ، ويتبع كل شيطان مريد ، فيعصى رسول الله تعالى اليه . واذا عصى الرسول فقد عصى الله تعالى ، لأن من أطاع الرسول فقد أطاع الله ، كما نص على ذلك القرآن الكريم . وقد انتهى العصيان بفرعون الى الطغيـــان بادعاء الالوهية ، وبقوم لوط عليه السلام الى الطغيان ، باتيـــان الرجال شهوة من دون النساء ، فدمرهم الله تعالى ، هم والطاغين أمثالهم تدميرا .

والى الطاغين أمثالهم اشار قوله تعالى : « ومن قبله » فى الآية الكريمة « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » وثمـــة قراءتان بشأن « ومن قبله » قرىء بكسر القاف أى ومن عنده ممن فى زمانه ، من اتباعه من كفار القبط ، وقرأ آخرون بفتحها أى ومن قبله من الأمم المشبهين له(١) .

وهكذا يتبين أن قبله وقبله قراءتان(٢) أما أحب القراءتين الينا ، فالقراءة بفتح القاف : « ومن قبله » أى ومن قبل فرعون لسبب غاية فى الأهمية ، هو أن السياق قبل ذلك ، وبعد ذلك ، اتجه حيث الزمن الماضى باستمرار . فقوم هود عليه السلام ، أعنى عادا ، يسبقون ثمود ، قوم صالح عليه السلام . وقد جاءت الاشارة اليهما فى هذه السورة الكريمة ، والحديث عنهما ، مقدما ثمود على عاد ، كما مر بنا من قبل . وقوم لوط عليه السلام ، يســـبقون فرعون وقومه . وقوم نوح عليه السلام هم الأسبقون . فالمعروف أن نوحا

---

(١) ابن كثير ، ٤/٤١٣ .
(٢) انظر تفسير القرطبى ص ٦٧٤٠ و ٦٧٤١ .

عليه السلام ، أول رسل الله تعالى . وان لوطا عليه السلام ، معاصر لابراهيم عليه السلام . جاء فى سورة العنكبوت(١) مثلا قوله تعالى : « ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ، فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين . قال رب انصرنى على القوم المفسدين . ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ، ان أهلها كانوا ظالمين . قال ان فيها لوطا . قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ، الا امرأته كانت من الغابرين ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين . انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » ومعروف أن ابراهيم عليه السلام ، سابق على كل من موسى وعيسى عليهما السلام . جاء فى سورة آل عمران(٢) قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .

وقد عبر عن قرى لوط بالقول « والمؤتفكات » وهو قول يصور الحال التى انتهت اليها قرى قوم لوط عليه السلام ، حيثما انقلبت رأسا على عقب ، بارادة القادر على كل شىء ، فلم تبق منهم باقية . ولا يخفى أن التعبير يخلع الأفئدة ، وأنه يتمشى مع الجو العنيف للسورة المكية ، التى تخاطب فى المقام الأول كفار مكة ، القساة القلوب ، الغلاظ الأفئدة ، المنكرين للبعث . والتى تعالج أسس العقيدة .

---

(١) آيات ، ٢٨ — ٣٥ .

(٢) آيات ٦٥ — ٦٧ .

والمراد بالمؤتفكات ، فى الآية الكريمة ، اهل القرى التى ائتفكت بأهلها ، أى انقلبت . والمعروف أن الائتفاك عند اهل العربية ، بمعنى الانقلاب يقال : ائتفكت البلدة بأهلها ، أى انقلبت ، فهى مؤتفكة(١) . وقيل : المؤتفكات : المدن التى قلبها الله تعالى على قوم لوط عليه السلام(٢) ولا خلاف فى حقيقة الأمر بين التعبيرين ، لأن نسبة الائتفاك الى القرى من قبيل المجاز . وقد جاءت المؤتفكات فى صيغة الجمع ، لأنها خمس قريات : صبعة ، وصعرة ، وعمرة ، ودوما ، وسدوم ، وهى القرية العظمى(٣) .

والآن نتحول الى الآية الكريمة التالية . قال تعالى : « فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » . ان كلا من فرعون ومن سبقه فى طريق الضلال وقوم لوط عليه السلام قد جاءوا بفعلتهم الخاطئة، فعصوا بذلك رسول ربهم عز وجل ، الذى أمرهم بعبادة الله تعالى ، وبفعل الأوامر واجتناب النواهى ، والاستعداد لليوم الآخر . وقد عبر عن الرسل بلفظ المفرد « رسول » مع أن كل أمة قد بعث الله تعالى لها رسولا ، لأن جوهر دعوة الرسل واحد ، هو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد ، والانقياد له عز وجل بالطاعة ، والخلوص من الشرك . وقد عبر فى مناسبات أخر عن الرسول المفرد بلفظ الجمع ، كما قال تعالى(٤) : « كذبت قوم نوح المرسلين » وقال تعالى(٥) : « كذبت عاد المرسلين » وقال تعالى(٦) : « كذبت ثمود المرسلين » وقال تعالى(٧) « كل كذب الرسل فحق وعيد » .

وقد جاءت لفظة الرب فى الآية : « فعصوا رسول ربهم » بقصد التنبيه الى عظم الذنب الذى ارتكب القوم فى اشراكهم به عز وجل غيره ، وهو مربيهم بالنعم والآلاء . ان لفظة الرب القادره على التنبيه على تربية الله تعالى الخلق بالنعم والآلاء تظهر فى السياق هنا ، عقوق الكافرين وجحودهم للنعم أشد وضوحا بسبب عصيانهم

---

(١) اللسان ، « أفك » .
(٢) اللسان : « أفك » .
(٣) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤١ .
(٤) الشعراء ، ١٠٥ .
(٥) الشعراء ، ١٢٣ .
(٦) الشعراء ، ١٤١ .
(٧) ق ، ١٤ .

رسول ربهم الذى أمروا بطاعته ، لأن طاعته من طاعة الله عز وجل، وعصيانه من عصيانه تعالى .

وتنص الآية الكريمة على سنة الله تعالى بشأن الأمم السابقة على الأمة المحمدية ، بأن تأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، بعد ثبوت الحجة عليهم ، واستيئاس رسل الله تعالى اليهم ، من عودتهم الى الصراط المستقيم . لقد عبرت لفظة « أخذة » الدالة على المفرد ، عن حقيقة ضعف تلك الأمم وهوانهم وهم المغرورون بثرائهم المخدوعون بقوتهم . وان وصف هذه الأخذة بأنها رابية ، أى زائدة فى الشدة والعنف ، بالاضافة الى تمشيه صوتيا مع رءوس الآى، هو يعمق من الفعلة الخاطئة التى ارتكبها قوم كل رسول ، بحيث انهم استوجبوا أن تكون الأخذة موافقة فى الشدة والعنف لطغيانهم الذى ليس عليه من مزيد .

والمتأمل لكل مشتقات الأصل اللغوى « ربا » يتبين ارتباطه بالزيادة والنماء والعلو ، كالربا فى المال ، والربوة ، والرابية بشأن ما ارتفع من الأرض وربا(١) والتربية . وقولهم(٢) : « ربيته تربية وتربيته أى غذوته . قال « الجوهرى » : « هذا لكل ما ينمى كالولد والزرع ونحوه » . ومن ذلك لفظة رابية فى الآية الكريمة « أى عالية زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم »(٣) « قال الجوهرى : أى زائدة ، كقولك : أربيت اذا أخذت أكثر مما أعطيت »(٤) وقد نصت سورة العنكبوت(٥) على بعض مظاهر هذه الأخذات الرابيات . قال تعالى : « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ومعروف أن قوم لوط عليه السلام قد خسف الله تعالى بهم الأرض . وأن فرعون قد أغرقه الله تعالى . والشىء نفسه يقال عن قوم نوح عليه السلام الذين سيشير اليهم السياق .

---

(١) اللسان « ربا » .
(٢) اللسان : « ربا » .
(٣) تفسير القرطبى ، ٦٧٤١ .
(٤) اللسان : « ربا » .
(٥) آية ، ٤٠ .

القسم الرابع

وجوب أخذ العبرة من إنجاء الله تعالى نوحًا عليه السلام وقومه من الطوفان

الآيتان (١١ و ١٢)

القسم الرابع :

تبينا أن الحديث عن الأمم التى اهلك الله تعالى بطغيانهم ، قد راعى الترتيب الزمنى المتجه الى الماضى ، ابتداء من ثمود فعاد ، الى فرعون ومن قبله ، وأهل قرى لوط عليه السلام ، وها هو ذا يستمر بعد ذلك مراعيا الاتجاه الزمانى ذاته اذ تحول الى نوح عليه السلام ، أول رسل الله تعالى الى البشر ، والى قومه ، قال تعالى : « انا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .

وثمة أشياء عدة ، يمكن أن تقال فى هذه الطريقة من التعبير .

١ — على الرغم من أن الحديث فى الآيتين الكريمتين ، يتعلق بنوح عليه السلام ، الذى يتقدم زمنا فرعون ومن قبله والمؤتفكات ؛ فانه هنا لا يتم من زاوية العقاب المفهوم ضمنا ، وانما من زاوية رحمة الله تعالى بالفئة المؤمنة ، وعلى راسها رسول الله تعالى اليهم ، نوح عليه السلام ، حيث قد أنجاهم عز وجل ، بواسطة السفينة التى أوحى لنوح عليه السلام ، أن يصنعها ، حتى اذا جاء أمره تعالى وفار التنور ، حمل نوح عليه السلام ، كما أمره ربه جل وعلا ، من كل زوجين اثنين والمؤمنين من أهله . وان انقاذ من ركب السفينة لأمر نوح عليه السلام بالركوب ، انما تم بارادته عز وجل التى شاءت للحياة بعد الطوفان أن تكون استمرارا لها قبله .

٢ — بما أن كل البشر بعد الطوفان ، مؤمنهم وكافرهم ، سلالة أولئك الذين حملتهم الفلك زمن الطوفان ، فان منة انقاذ الفئة المؤمنة ، بحملهم فى الجارية لما طغا الماء ، تطوق فى الحقيقة أعناق البشر أجمعين ، وليس الذين تم انقاذهم فقط ، فان السياق الذى يهدف الى أن تؤخذ العظة والعبرة ، يراعى الفئة التى تعتبر الهدف الحقيقى ، من التنبيه الى الحادثة ذات الشقين ، النعمة والنقمة . وذلك باستعمال ضمير جماعة المخاطبين وليس الغائبين

« حملناكم فى الجارية » وبطبيعة الحال ، لا يخرج الذين يوجه اليهم الخطـــاب ، عن دائرة الذين يستحقون الثـــواب أو العقـــاب . أما المؤمنون ، فمن حقهم أن يفهموا أنهم يستحقون ، بمن من الله تعالى وفضل ، نصيبهم من الثواب فى الدنيا والآخرة . فى الدنيا ، على غرار انقاذ الله تعالى الفئة المؤمنة ، زمن الطوفان ، بحملهم فى الجارية . وفى الآخرة تحقيقا لقوله تعالى مثلا(١) : « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » وأما المجرمون فمن واجبهم أن يفهموا أنهم يستحقون كفلهم من العقاب فى الدنيا والآخرة . وذلك على غرار اهلاك الله تعالى بالغرق ، مكذبى نوح عليه السلام ، المنـــكرين للبعث : « ويوم القيـــامة يردون الى أشـــد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون »(٢) .

٣ ــ ان العدول عن ضمير جماعة الغائبين ، الى ضمير جماعة المخاطبين فى قوله تعالى : « انا لمـــا طغا المـــاء حملناكم فى الجارية » قادر على حمل المرتلين للقرآن الكريم ، والمصغين له ، على الفهم أنهم هم المقصودون من سرد القصة ، من هذه الزاوية بالذات . وأن استعمال جملة « طغا » بشأن المـــاء الذى ارتفع زمن الطوفان وفاق كل حد ، قادر على أن يقذف الى الذهن ، بالألفاظ ، ذات الوجهة ذاتها أو القريبة منها ، معنى وصوتا ، والتى ظهرت بوضوح ، فى هذه السورة المكية ، التى يعتبر الانذار من أكبر أهدافها ، وبخاصة لفظة الطاغية فى قوله تعالى : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » ولفظة « عاتية » فى قوله تعالى : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » ولفظة « رابية » فى قوله تعالى : « فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » .

وهذه الألفاظ ، ذات المعانى التى تخلع الأفئدة ، والتى جاءت فى صيغة اسم الفاعل ، الذى لحقت به التاء ، القابلة لأن تتحول هاء ، لأجل الوقف ، قادرة على أن تقذف الى الذهن ، هى بدورها ، الصيغ المماثلة معنويا وصوتيا . بحيث يحس فى الأعماق ، المرتل

---

(١) يوسف ، ٥٧ .
(٢) البقرة ، ٨٥ .

والمنصت للسورة الكريمة ، انه يعيش فى أجواء متتابعة المخاوف ، متلاحقة الصـــواعق .

٤ ــ اذا كان الخطاب : « انا لمـــا طغا الماء حملناكم فى الجارية » قادرا على حمل المخاطبين أن يشاركوا ، بعقولهم ووجداناتهم ، ايجابيا ، باعتبارهم أطرافا رئيسيين فى الحادث ، فان هذه المشاركة، تكون أكبر ، حينما يتمثل المخاطب ويتدبر ، نعمة الله تعالى بتسخير الماء له ، كى يتخذه ركوبا ، عن طريق الفلك ، آلتى تجرى فى البحر كالأعلام . وحينما يتأمل مثل قوله تعالى(١) : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير » . وتصل المشاركة الدرجة التى ليس وراءها درجة ، عند من القى السمع وهو شهيد ، حينما يكون المخاطب ممتطياالبحر فعلا . انه حينما يكون صبارا شكورا ، فانه يتبادر الى ذهنه وهو خاضع لربه خاشع قوله عز وجل(٢) : « وان تعدوا نعمـــة الله لا تحصوها » أما حينما يكون ختارا كفورا ، فانه ينسى الله تعـــالى وقت الأمن والطمأنينة ، ويذكره عز وجل ، وحده لا شريك له ساعة الشدة والضر . والقليل بعد ذلك ، من يذكر نعمة الانقاذ من الهلاك المحقق ، جاهلا أو متجاهلا أن الله سبحانه وتعالى معه أينما كان ، وانه وان ظن أنه بمأمن من الغرق فى الماء ، الذى أنقذه الله تعالى منه ، فليس بمأمن من الغرق فى البر ، عن طريق الزلازل والبراكين وما الى ذلك . فليس المـــاء فقط هو الخداع ، انما قشرة الأرض خداعة هى كذلك ، لأنها ، بالاضافة الى ما يمكن أن تغرق به من من ماء أو حصباء أو غيرهما ، هى تخفى تحتها من وسائل الهلاك السائلة سيلان المـــاء ، ما يزيد على الاغراق بالاحـــراق . وهل استغنى الختار الكفور عن اتخاذ البحر ركوبا وبالتالى أمن أن يرسل الله تعالى عليه مستقبلا قاصفا من الريح فيغرقه بسبب كفره ؟ والى شيء من ذلك أشـــار قوله تعالى من ســـورة الاسراء(٣) : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ، انه كان

---

(١) الشـــورى ، ٣٢ ــ ٣٤ .
(٢) ابراهيم : ٣٤ . والنحل : ١٨ .
(٣) آيات ، ٦٦ ــ ٦٩ .

بكم رحيما . واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا ايـــاه فلما نجاكم الى البر أعرضتم ، وكان الانسان كفورا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » .

٥ ــ ان التحول من الغيبة الى الخطاب فى هذه الآية الكريمة : « انا لمـــا طغا المـــاء حملناكم فى الجارية » هيأ لاستعمال الصيغة ذاتها فى الآية التالية : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » . لغرض أبعد هذه المرة من الغرض فى الآية السابقة . وتفسير ذلك أنه اذا كان أخذ العظة والعبرة مفهوما ضمنا فى الآية الأولى ، فانه مصرح به فى هذه الآية الكريمة . فقد صرح هذه المرة أن جعل آية الحمل فوق المـــاء ، من أجل أن تكون تذكرة ، وبقصد أن تعيها أذن واعية . وان القول فى الآية : « لنجعلها لكم تذكرة » الذى وطىء له بالقول « حملناكم فى الجارية » ــ ومعروف أن الذين حملوا فى الجارية الأجداد الأسبقون ــ يجعل مثل هذا القول ، يراد به انعام النظر فى نعمة حمل جنس الانسان ، بقدرة الله تعالى ، فوق المـــاء ، تلك النعمة التى يستطيع المخاطب ، بارادة الله تعالى ، أن ينعم بهـــا كل وقت . وهكذا نتبين أن الالتفات فى السياق ، من ضمير الغائبين الى المخاطبين ، له القدرة على سحب الماضى الى الحاضر ، ونقل الانسان ، من الوقوف موقف المستذكر ، الى المتجاوب وجدانيا ، بل الى موقف المجرب ، فالأكثر تقديرا ، لهذه النعمة ، فيشـــكر الله تعالى عليها . ومن أهم مظاهر شكر الله تعالى عبادته وحده لا شريك له .

٦ ــ اذا كنا قد لاحظنا أن الحديث عن الأمم التى أهلكها الله تعالى ، قد راعى بدقة ، عقد الزمن الذى ينظمها ، متجها الى الماضى الذى نبه اليه بقوة القول : « ومن قبله » بفتح القاف ، وفق القراءة الراجحة ، فان شيئا ليس بعيدا عن هذا يمكن أن يقال عن الآيتين الكريمتين : « انا لمـــا طغا المـــاء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » . وتفسير ذلك أن أولى الآيتين الكريمتين تتحدث عن الارتفاع المطرد وثانيتهما عن العمق المطرد .

أما الارتفاع المطرد فى اولى الآيتين فتفسيره ان المـــاء قد طغا فهلك الطغاة . أما المتقون فقد كانوا فى الجارية ، فوق ذلك المـــاء الطاغى وفوق كل أحد وشىء . وان للارتفاع المطرد نقطتى ارتكاز فى الآية الكريمة هما طغيان المـــاء فالحمل فوقه .

وأما العمق المطرد فى ثانية الآيتين فتفسيره ان نعمة حمل المؤمنين فى الجـــارية وقت الطوفان ، ينبغى أن يتذكرها الخلق اجمعـــون « لنجعلها لكم تذكرة » يعنى عبرة وموعظـــة تتعظون بها »(١) والتذكرة ما يستذكر به الحاجة(٢) وهذه هى احدى نقطتى ارتكاز العمق فى الآية حيث ان للعمق المطرد نقطتى ارتكاز على غـــرار الارتفاع المطرد . أما ثانية النقطتين فان هذه النعمة لا ينبغى أن يكتفى بتذكرها دون أخذ العظة والعبرة منها ، بأن يستمر المتقون فى خط تقواهم ، وان يهجر المخطئون طريق خطئهم كيلا يكون نصيبهم الغرق . وما اكثر صوره هو أو ما فى حكمه . والى هذه المرحلة أشار القول فى الآية الكريمة : « وتعيها أذن واعية » « يعنى حافظة عقلت عن الله ما سمعت »(٣) .

ونحن اذا بحثنا فى الآية الكريمة عن المنفذ الذى تنفذ منـــه التذكرة والوعى ، لوجدناه الاذن . ولمـــا كان البعض يبدو وكأنه يصغى بينما قلبه فى صمم ، ولمـــا كان البعض يســـمع دون ان يتذكر أو يستفيد ، ولمـــا كان هدف الآية الكريمة الافادة الايجابية . فقد كانت نقطتا ارتكاز العمق فى الآية الكريمة ، مرتبطتين بمرحلتين من الفائدة ، تعتبر ثانيتهما ، المبنية على الأولى ، أشد عمقـــا . لذا كانت الاشارة فى المرة الأولى الى التذكرة ، التى تتجه من الاذن الى الذاكرة ، الى الذهن أو العقل . وكانت الاشارة فى المرة الثانية الى الوعى الذى يشترك فيه العقل والفؤاد معـــا ، ممـــا تنعكس آثاره فى كل حركة للانسان وسكنة ، قولة أو سكتة .

وقد أسند الوعى الى الاذن ، لانها هى المنفذ الاهم ، للوصول

---

(١) تفسير الطبرى ، ٣٥/٢٩ .
(٢) القاموس « ذكر » .
(٣) تفسير الطبرى ، ٣٥/٢٩ .

الى هذه الغاية الحميدة ، ولأن الانسان عن طريقها يتخذ قراره من العمل على طرد الكلام الذى لا يريد سماعه ، أو معارضة ما يسمع أو موافقته . ويبدو أن أولى مراحل الموافقة التذكر ، الذى يشكل نقطة الارتكاز الأولى للتجاوب والتعاطف . ويبدو ان آخر مراحل الموافقة الوعى الذى يشكل نقطة الارتكاز الثانية .

وقد عينت لفظة « واعية » نوع الأذن التى يتعامل معها السياق، او نوع الانسان الذى ينبغى أن يكون قد نجح فى امتحان مرحلة التذكر السابق . كما حددت جملة « وتعيها » طبيعة المهمة التى ينبغى أن تقوم بها تلك الأذن — أو ذلك الجنس من الناس التى تلك طبيعة أذنه واستعداداته — والتى لا يستطيع أن يقوم بها سواها .

ان جملة « وعى » منتشرة أشعة المعنى . فهى مثلا ترتبط بحفظ النفس(١) والقلب والصدر للشىء . وحفظ الذهن والعقل للحديث، بسبب الفهم والقبول ، وانعكاس آثار ذلك ايمانا وعملا . وبحفظ الوعاء للشىء الذى يجمع فيه(٢) ويقال : وعيت لما حفظ فى النفس. وأوعيت لما حفظ فى غير النفس من الأوعية(٣) وقد أوحت جملة «تعيها» بأشعة المعانى المنتشرة حسيا ومعنويا . وما لبثت هذه الأشعة المنتشرة أن جمعت فى لطف وسلك بها أذن من طراز رفيع، أذن واعية ، أهل لأن يتخللها أحسن القول ، وتعيه وتقوم هى بتوزيعه على أجزاء جسم التقى الورع ، فينعكس ايمانا وعملا . ورأس الايمان مخافة الله تعالى التى لا تكون الا بعبادته وحده لا شريك له . وقوام العمل اتباع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، امتثالا لأوامره عز وجل وأوامر حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

٧ — اذا كانت هاتان الآيتان الكريمتان : « انا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » يتجلى فيهما دقة المراعاة لنوع الانتجاه فى الآية الكريمة ارتفاعا

---

(١) تفسير القرطبى ص ٦٧٤٢ والبحر المحيط ٣٢٢/٨ .
(٢) أنظر مثلا القاموس « وعى » .
(٣) البحر المحيط ٣٢٢/٨ وتفسير القرطبى ص ٦٧٤٢ .

أو عمقا . فكان فى الأولى الارتفاع المطرد حسيا المؤدى الى العمق المطرد معنويا ، فان شيئا كهذا يقال عن الآيتين الكريمتين صوتيا . واول ما يمكن أن يقال : ان الزمن الذى يستغرقه تلاوة كل من الآيتين الكريمتين يكاد يكون واحدا . فالآية الأولى تتكون من سبعة الفاظ . والثانية من ستة .

وفى الآية الأولى حرف الجر « فى » الذى لا يبقى منه لضرورة نطقه مرتبطا بلفظة الجاريه الا « حرف » واحد . فكأنه جزء من الكلمة التالية . ولا يقف الأمر عند هذا الحد . انما يتعداه . فى ضوء كلامنا السابق عن حرف الجر « فى » — الى كون كل «آية» تتكون من قسمين ، يعبر كل عن « فكرة » والى كون كل من الآيتين صوتيا تلائم المعنى ارتفاعا أو عمقا . وتفسير ذلك أن الآية الأولى التى يطرد فيها مراعاة الارتفاع حسيا ، تكثر فيها الالفات ، بحيث انه لا تكاد تخلو وحدة صوتية واحدة فى الآية الكريمة من حرف الألف هذا . لذا ينبغى أن يظل الصوت فى ارتفاعه باستمرار . قال تعالى : « انا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية » وأن الآية الثانية التى يطرد فيها مراعاة العمق معنويا ، تكثر فيها الحروف المتحركة كثرة ملحوظة . لذا يحمل المرتل على الاتئاد حملا . قال تعالى : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .

ولما كانت العلاقة متينة بين الآيتين الكريمتين ، ويكفى أن معنى الثانية قائم على الأولى ، فان الظاهرة التى تغلب على الآية الأولى ، وهى الألف الممدودة ، توجد فى هذه الآية بدرجة توحى بالعلاقة المعنوية بين الآيتين الكريمتين . ان الجملة التى يبدا بها كل من قسمى الآية تنتهى بهذه الألف « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » هذا بالاضافة الى أن اللفظة الأخيرة ، التى فبها الفاصلة ، هى من الوجهة الصوتية ، على غرار كل الالفاظ المماثلة فى الآيات السابقة . ولعلك تريد أن تضيف ، بأن كل قسم فى هذه الآية يتكون من ثلاثة الفاظ ، لذا فان جمال الالف صوتيا فى الجملتين « لنجعلها » « وتعيها » شديد الوضوح . وهذا صحيح .

القسم الخامس

القسم الخامس :

قال تعالى : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على ارجائها . ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » .

ان أول سؤال يطرح نفسه هنا هو : أى النفختين تعنيها أولى آيات القسم ؟ : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » الأولى التى تميت بارادة الله تعالى الخلائق اجمعين . أم الثانية التى تحييهم بارادة الله تعالى ؟ أم أن هذا القسم يتحدث عن النفختين معا بملابساتهما ، ومعروف أن بين النفختين اربعين ، كما جاء فى حديث ، وقد رجح البعض أن المقصود أربعون سنة ؟ (١) .

اختلف العلماء بشأن تعيين النفخة . فجمهورهم قد ذهب الى أن المقصود بقوله تعالى : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » النفخة الأولى . واستدل على ذلك بالقول : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » وبعضهم ذهب الى أن المقصود النفخة الثانية ، مستدلا بما جاء فى السياق بعد ذلك ، مما هو من مستلزمات النفخة الثانية . ومن الذين ذهبوا الى الراى الأول ابن عباس رضى الله عنهما ، الذى قال(٢) : « هى النفخة الأولى لقيام الساعة ، فلم يبق أحد الا مات » .

ونحن نرى رأى ابن عباس . وهو رأى جمهور العلماء ، فنذهب الى القول : ان قوله تعالى : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » يعنى النفخة الأولى(٣) حينما ينفخ فى الصور اسرافيل(٤) ودليلنا على ذلك ، هو دليل جمهور العلماء ، بأن الآية التالية ،

---

(١) انظر صحيح مسلم : ٩١/١٨ .
(٢) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٣ وانظر الكشاف ٢٦٤/٣ والبحر ٣٢٢/٨ .
(٣) انظر تفسير الطبرى ، ٣٦/٢٩ .
(٤) تفسير الطبرى ، ٣٦/٢٩ .

نتحدث عما هو من مستلزمات النفخة الأولى التى تميت بارادة الله تعالى الخلائق فلا يبقى أحد . قال تعالى : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » . وفى الوقت ذاته نضيف قائلين : بما أن يوم القيامة متسع لنفخة الفزع أو الصعق ، ولنفخة البعث والنشور من أجل الحساب والجزاء ، اذ بين النفختين أربعون سنة ، فقد تحول السياق الى ذكر متعلقات هذه النفخة الثانية . ويلوح أن منعطف التحول الى النفخة الثانية ، هذه الآية الكريمة : « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » التى يبدو ، والله تعالى أعلم أنها قادرة على الايحاء بملابسات السماء فى النفختين معا . ان لفظة الأرض فى الآية الثانية : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » استدعت بداهة ، لفظة السماء ، القوية الصلة بالأرض فى نفس الانسان . وقد جاءت لفظة السماء فى الآية ، لأن لها نصيبها من النفخة الأولى ، على غرار نصيب الأرض . قال تعالى(١) : « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت » وقال(٢): « اذا الشمس كورت(٣) واذا النجوم انكدرت(٤) » .

أما الذى يحملنا على مثل هذا القول : انه يظن أن للسماء نصيبها من النفخة الأولى فى الآية الكريمة ، فهو أن نصيب الأرض منها قد صرح به السياق . قال تعالى : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » .

والمعروف أيضا أن للسماء نصيبها من النفخة الثانية ، على غرار نصيب الأرض . جاء فى سورة ابراهيم(٥) قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار » . وقال تعالى(٦) « اذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . واذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت » .

---

(١) الانفطار ، ١ ، ٢ .
(٢) التكوير ، ١ ، ٢ .
(٣) كورت : انحسر ضوؤها .
(٤) انكدرت : انفصم رباطها فتناثرت ثم أظلمت .
(٥) آية ، ٤٨ .
(٦) الانشقاق ، ١ — ٥ .

اما الذى يحمل على القول انه يظن ان للسماء نصيبها فى الآية الكريمة من النفخة الثانية أيضا ، فهو الآيات اللاحقة ، وكذلك الآية السابقة ، التى تتحدث عن يوم القيامة وملابساته . وهذه هى الآيات فى نسق . قال تعالى : « فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء . فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها . ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . ان القول : « فيومئذ وقعت الواقعة » ومعناه أن القيامة قد قامت ، يفهم منه ابتداء القيامة بالنفخة الأولى ، كما يمكن أن يفهم منه الاستمرار حتى الحساب ، فالجنة او النار . وفى امكاننا أن نستأنس فى هذا الشأن بالآيات المتقدمة من سورة الواقعة(١) قال تعالى : « اذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . اذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا . وكنتم أزواجا ثلاثة » . ان القول : « اذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا » يهيء النفس لفهم ابتداء الواقعة ، الممثل فى النفخة الأولى . ويؤيد هذا الفهم الآية الثانية « ليس لوقعتها كاذبة » وان القول فى الآية الثالثة : « خافضة رافعة » وفى الآية السابعة : « وكنتم أزواجا ثلاثة » يهيىء النفس للفهم أن الواقعة مستمرة حتى الحساب فالجنة أو النار ، كما سبق أن قلنا .

وان وصف السماء بالوهى ، اى بالضعف ، بفعل الانشقاق ، يمكن أن يفهم منه الانشقاق الأولى الذى هو من نصيب السماء ، على غرار نصيب الأرض من الزلزلة ، مما هو من متعلقات النفخة الأولى . ويمكن أن يفهم منه أيضا انشقاق السماء بالغمام ونزول الملائكة . وقد أشار الى ذلك قوله تعالى فى سورة الفرقان(٢) : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا » .

وان كون السماء ، لها نصيبها من النفختين ، الأولى والثانية ، هو الذى جعل للعلماء ، رأيين تجاه هذا الانشقاق . انه من

---

(١) آيات ، ١ ــ ٧ .
(٢) آية ، ٢٥ ، ٢٦ .

متعلقات النفخة الأولى ، وان السياق السابق يهيىء لفهم كهذا ، وانه من متعلقات النفخة الثانية أيضا ، وذلك من أجل نزول الملائكة ، وأن السياق اللاحق ، على وجه الخصوص ، يهيىء لفهم كهذا : « والملك على أرجائها . ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية »(١) .

ومهما يكن الأمر ، فان انشقاق السماء من متعلقات كل من النفختين . الانشقاق فى الأولى يتعلق بالسماء ذاتها . والانشقاق فى الثانية يتعلق بنزول الملائكة تنزيلا .

وبناء على ما سبق نستطيع أن نفهم أن هذا القسم من السورة ، يتحدث عن النفختين معا ، باعتبار يوم القيامة يتسع لهما ولمتعلقاتهما وثمة العديد من المواضع فى القرآن الكريم التى تم فيها الحديث عن يوم القيامة من زاوية شموله لكل ذلك . من هذه المواضع قوله تعالى(٢) : « اذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . واذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت » . وقوله تعالى(٣) : « اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت . واذا البحار فجرت . واذا القبور بعثرت » وقوله تعالى(٤) : « اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت . واذا الجبال سيرت(٥) واذا العشار عطلت(٦) واذا الوحوش حشرت(٧)

---

(١) انظر هنا تفسير القرطبى ص ٦٧٤٣ وتفسير ابن كثير ٤/٤١٤ والبحر المحيط ٨/٣٢٢ .

(٢) الانشقاق ، ١ ــ ٥ .

(٣) الانفطار ، ١ ــ ٤ .

(٤) التكوير ، ١ ــ ١٣ .

(٥) ذهب بها عن وجه الارض فصارت هباء منبثا .

(٦) العشار : النوق الحوامل . عطلت : تركت بلا راع أو بلا حلب لمدهاهم من الامر . وان لم يكن مال أعجب اليهم منها . وانما خص العشار بالذكر لأنها أعز ما تكون على العرب وليس يعطلها أهلها الا حال القيامة . وهذا على وجه المثل . لان فى القيامة لا تكون ناقة عشراء ولكن أراد به المثل .

(٧) جمعت بعد البعث ليقتص لبعض من بعض ثم تصير ترابا .

واذا البحار سجرت(١) واذا النفوس زوجت(٢) واذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت . واذا الصحف نشرت(٣) واذا السماء كشطت(٤) واذا الجحيم سعرت(٥) واذا الجنة أزلفت(٦) » .

هذه النظرة الأولى ، التى كانت من زوايا المحاولة لمعرفة أى النفختين عنى السياق . لنا نظرة ثانية الى آيات هذا القسم . فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » عرفنا أن المراد بالنفخة هنا النفخة الأولى التى تميت باذنه تعالى الخلائق أجمعين والتى عناها مثلا قوله تعالى(٧) : « ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون » وقوله(٨) : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض الا من شاء الله » .

ووصفت النفخة ، التى يقوم بها واحد من جند الله تعالى ، هو الملك اسرافيل ، بأنها واحدة . هكذا شاءت ارادة الله تعالى أن تكون النفخة واحدة أى لا تثنى(٩) لأن أمر الله لا يخالف

---

(١) أوقدت فصارت نارا . وقيل ملئت بالماء ، ارسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها حتى امتلأت .

(٢) قرنت بأجسادها . وجاء فى تفسير القرطبى ص ٧٠٢٢ قال النعمان بن بشير قال النبى صلى الله عليه وسلم : واذا النفوس زوجت قال . يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله .

(٣) صحف الاعمال التى كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر . تطوى بالموت وتنشر فى القيامة ، فيقف كل انسان على صحيفته فيعلم ما فيها .

(٤) نزعت عن أماكنها كما ينزع الجلد عن الشاه . والكشط قلع عن شدة التزاق . فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره . والقشط لغة فيه .

(٥) أججت .

(٦) قربت لاهلها ليدخلوها . وقد اعتمدنا فى شرح الآيات على الجلالين وتفسير القرطبى .

(٧) يس ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٨) الزمر ، ٦٨ .

(٩) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٣ .

ولا يمانع ولا يحتاج الى تكرار ولا تأكيد(١) فان قلت هما نفختان فلم قيل واحدة ؟ قلت : معناه أنها لا تثنى فى وقتهـــا(٢) وقرأ الجمهور نفخة واحدة يرفعهما(٣) « قال الأخفش : ووقع الفعل على النفخة اذ لم يكن قبلها اسم مرفوع فقيل نفخة . ويجوز نفخة ، نصبا على المصدر »(٤) .

وهذه هى الآية الكريمة الثانية . قال تعالى : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » قرأ الجمهور وحملت بتخفيف الميم(٥) أى حملتها الريح العاصف أو الملائكة أو القدرة من غير واسطة مخلوق(٦) والدك أبلغ من الدق(٧) « وثنى » الضـــمير فى « فدكتا » وان كان قد تقدمه ما يعود عليه ضمير الجمع ، لأن المراد جملة الأرض وجملة الجبال ، أى ضرب بعضها ببعض حتى تفتتت وترجع كما قال تعالى(٨) « كثيبا مهيلا »(٩) « وقال الفراء : لم يقـــل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة والأرض كالجمـــلة الواحدة . ومثله « أن السماوات والأرض كانتا رتقا »(١٠) ولم يقل « كن » وهذا الدك كالزلزلة . كما قال تعـــالى : « اذا زلزلت الأرض زلزالها »(١١) .

ونستطيع أن نفهم أن جملة الجبال ضرب بها ، بقدرة القـــادر على كل شىء ، جملة الأرض ، فكانت الجبال كثيبا مهيـــلا ، ومن باب أولى ، ما يقل فى مجال المقاومة عن الصخر والجبـــال . قال تعالى(١٢) : « يوم ترجف الأرض والجبـــال وكانت الجبال كثيبـــا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤١٤ .
(٢) الكشاف ٣/٢٦٤ .
(٣) البحر المحيط ٨/٣٢٢ .
(٤) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٣ .
(٥) البحر المحيط ، ٨/٣٢٣ .
(٦) البحر ٨/٣٢٣ وانظر الكشاف ٣/٢٦٤ فقمة الفكرة ذاتها .
(٧) الكشاف ، ٣/٢٦٤ .
(٨) المزمل : ١٤ .
(٩) البحر المحيط ، ٨/٣٢٣ .
(١٠) الانبياء : ٣٠ .
(١١) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٣ .
(١٢) المزمل : ١٤ .

مهيلا » . وينبغى أن يكون للفظة « واحدة » من قوله تعالى : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » وقد تغير ما قبل الهاء آخر الآية من ياء الى دال ، أثر فعال فى شد الانتباه . ويلاحظ أنها جاءت فى صيغتها على نسق الفواصل السابقة واللاحقة أيضا . وينبغى أن يكون لتكرار لفظة « واحدة » فى الآية التالية : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » أثر فعال كذلك ، لارتباط اللفظة فى الموضعين بقدرة الفعال لما يريد ، والذى اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون . انه يرتبط بالنفخة الأولى فى الصور لواحد من جند الله تعالى ، موت كل من فى السماوات ومن فى الأرض الا من شاء الله . ويرتبط بحمل الأرض والجبال ، بقدرة الفعال لما يريد ، ودكها ببعضها دكة واحدة ، كون الجبال كثيبا مهيلا . ومن باب أولى ما يقل عن الجبال فى القوة والصلابة .

وهذه هى الآية الكريمة الثالثة . قال تعالى : « فيومئذ وقعت الواقعة » معروف أن يوم القيامة متسع . وها نحن أولاء أمام أول مظاهره ومع بدايته . ومما يلفت انتباهنا فى الآية الكريمة القول : « وقعت الواقعة » فان الفعل والفاعل مرتبطان بعملية الوقوع ، أى السقوط من أعلى مما يرتبط به غالبا شيئان معا ، السرعة والصوت . وهما معمقان لبعد التأثير . فمثلا يقال : وقع الطائر ووقع القطر ، بينما يقال : ربيع بالأرض حصل(١) ولسرعة الحرب وكون اختلاط الأصوات ، بفعل الاصطدام ، من ملابساتها ، كان الاسم : الوقيعة والواقعة ، من الوقعة بالحرب ، بمعنى الصدمة بعد الصدمة . ووقائع العرب أيام حروبها(٢) .

وقد أطلق لفظ الواقعة على النازلة الشديدة(٣) . بسبب عمق الأثر،فى الشر بخاصة . وقد استعمل القرآن الكريم لفظةالواقعة، دليلا على يوم القيامة . وينبغى أن يكون لملابسات لفظ الواقعة ، الذى يرتبط به سرعة الوقوع ، وكذلك الصوت ، على نحو من الأنحاء ، كما بينا ، كبير دور فى ، الآية الكريمة من السورة الكريمة المكية التى يعتبر تقرير يوم القيامة من أهم أهدافها ان لم يكن أهم

---

(١) أنظر القاموس « وقع » .
(٢) أنظر القاموس : « وقع » .
(٣) أنظر القاموس : « وقع » .

أهدافها فعلا ، والتى ابتدأت ، بشأن عقاب المكذبين ، بثمود ، التى أهلكت بالصاعقة ، وعاد ، التى أهلكت بالريح الصرصر . وارتباط هاتين الوسيلتين من العقاب بالصوت واضح على نحو ما بينا . ولا ننسى أن فى السورة الكريمة مجموعة من الألفاظ ، يعتبر الصوت العالى بعض ملابساتها . وبخاصة لفظة القارعة ، ولفظة المؤتفكات ، والمراد بها قرى قوم لوط التى ائتفكت بأهلها ، أى انقلبت رأسا على عقب ، والقول : « نفخ فى الصور » ولفظة الدك ، وقد مهد آيات هذا القسم ، الذى يشتمل على عدد من الألفاظ المرتبطة بالصوت ، بهذه الآية الأخيرة فى القسم السابق : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » . وللاذن كبير دور فى الآية الكريمة ، كما لا يخفى ، وهى التى تميز بها الأصوات وتعرف .

وهذه هى الآية الكريمة الرابعة قال تعالى : « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » سبق أن نبهنا الى أن انشقاق السماء ، من الجائز أن يكون بمعنى تصدعها وانفطارها . وذلك مرتبط بالنفخة الأولى . ومن الجائز أن يكون لنزول من فيها من الملائكة . ودليله قوله تعالى فى الفرقان(١) : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا » . ان للعلماء رأيين فى هذا الشأن(٢) ولا يخفى أن هذه الآية الكريمة من سورة الحاقة ، قد تلاها القول : « والملك على أرجائها » .

ويلوح ، والله تعالى أعلم ، أن انشقاق السماء الذى نصت عليه الآية الكريمة : « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » مرتبط بالنفخة الأولى ، بأكثر من ارتباطه بنزول الملائكة ، الذى يبدو من سياق آيات سورة الفرقان ، أنه من ملابسات النفخة الثانية ، بينما لا يكاد يسعفنا السياق هنا على فهم كهذا . لقد نبه السياق الى نصيب الأرض أثناء النفخة الأولى ، و « معروف » أن للسماء نصيبها كذلك . ويلوح أيضا ، أن القول بعد ذلك

---

(١) آية : ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) أنظر تفسير القرطبى ، ٦٧٤٣ والبحر المحيط ٣٢٣/٨ .

مباشرة : « والملك على ارجائها » بمثابة التبع لانشقاق السماء اصلا بمعنى انفطارها وتصدعها . والذى يسعفنا على فهم كهذا أن آية سورة الفرقان السابقة : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا » لا تكتفى بانشقاق السماء مجردا ، انما تضيف الى ذلك انشقاق الغمام بمعنى السحاب . وبما أن السياق فى سورة الفرقان يتحدث عن ملابسات النفخة الثانية فهل المراد بالغمام نوع من السحاب يليق بسماوات ذلك اليوم وارضه التى تبدلت على نحو ما أشار قوله تعالى(١) : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار » ربما . فالله تعالى اعلم بالمراد . علما بأنه يمكن أن يفهم من مثل قوله تعالى فى سورة الانشقاق(٢) : « اذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . واذا الأرض مدت . والقت ما فيها وتخلت » ان تبدل الأرض غير الأرض ، من ملابسات النفخة الأولى .

ومعنى وصف السماء يوم القيامة بأنها واهية لانفطارها ، أنها متمزقة ضعيفة(٣) مسترخية ساقطة القوة جدا بعد ما كانت محكمة مستمسكة(٤) يقال : وهى البناء يهى وهيا فهو واه اذا ضعف جدا . ويقال : كلام واه اى ضعيف . فقيل إنها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف فى الوهى(٥) .

واذا كان العلماء يقولون ان تعلق الكواكب ، ومن بينها الأرض ، فى الفضاء ، انما تم بواسطة الجاذبية التى شاءت ارادة الله تعالى أن تكون لها تلك القدرة العجيبة ، فمن الجائز أن نفهم ما يحدث يوم القيامة بارادة الله تعالى . لا يقف عند ابطال مفعول هذه القوة ، مما ينجم عنه اضطراب خطوات الكواكب مثلا ، انما يتجاوز ذلك الى تغيرات قوية تنتاب السماوات والأرض ، نذكر منها ، مستفيدين من آيات الذكر الحكيم ، امتداد الأرض ، وانفطار

---

(١) ابراهيم : ٤٨ .
(٢) آيات ، ١ ــ ٤
(٣) تفسير الطبرى : ٣٦/٢٩ وهذا رأى ابن عباس .
(٤) الكشاف ، ٢٦٤/٣ .
(٥) تفسير القرطبى ، ص ٦٧٤٤ .